

الآحادية الفكرية

في الساحة الدينية

ⓒ حسن موسى الصفار، ١٤٢٩ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الصفار، حسن موسى
الأحادية الفكرية في الساحة الدينية./ حسن موسى الصفار.-
القطيف، ١٤٢٩هـ
..ص؛..سم
ردمك: ٢-٤٨٢-٠٠-٩٩٦٠-٩٧٨
١- الفكر الإسلامي أ.العنوان
ديوي٢١٩٣ ١٤٢٩/٢٥٥١
رقم الإيداع: ١٤٢٩/٢٥٥١
ردمك: ٢-٤٨٢-٠٠-٩٩٦٠-٩٧٨




الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨ م

الآحادية الفكرية

في الساحة الدينية

حسن موسى الصفار

بسم الله الرحمن الرحيم



الحمد لله رب العالمين. اللهم صل على محمد وآل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم، وبارك على محمد وآل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم، إنك حميد مجيد.





المحتويات






مقدمة

اختلاف الآراء وتباين الأفكار أمر طبيعي في واقع المجتمعات البشرية، فلا تخلو ساحة من ساحات المعرفة من تعدد المدارس والنظريات.

والساحة الدينية في المجتمع تخضع أيضاً لهذه المعادلة، حتى وإن كانت تنتمي إلى دين واحد، أو مذهب واحد.

ذلك لأن النصوص المنقولة هي المصدر الأساس لمعارف الدين وتعاليمه، والنص بطبيعته قد يحتمل أكثر من قراءة وتفسير، وأوضح شاهد على هذا اختلافات المفسرين في معاني كثير من آيات القرآن الكريم.

وهناك إلى جانب تعدد قراءات النص، الاختلاف في تقويم ظروف

صدوره، أو طرق وصوله، كما هو الحال في أحاديث السنة النبوية، والروايات الواردة عن أئمة أهل البيت ﷺ، وأعلام الصحابة، ووقائع السيرة والتاريخ.

إن من الطبيعي أن يؤثر تفاوت المستوى العلمي، واختلاف البيئات الثقافية والاجتماعية، وتنوع زوايا النظر ومنطلقات البحث، بل وحتى التكوين الذهني والنفسي لكل باحث في فهم المسائل وتحديد المواقف.

لذلك أصبح اختلاف العلماء والباحثين في القضايا الدينية أمراً معروفاً، ويُعَدُّ عنصر إثراء للمعرفة الدينية، وتكريساً لحرية الاجتهاد والرأي.



لكن دافع التنافس على الكسب الاجتماعي، قد يحوّل الاختلاف في بعض المسائل الدينية إلى معركة صراع ونزاع، وهذا هو الداء الأخطر الذي تعاني منه الساحة الدينية.

حيث تحتدم المعارك المذهبية، وتشتد الصراعات بين المدارس والتيارات الفكرية، وبين أتباع المرجعيات والقيادات الدينية. وتستعمل فيها أسلحة فتاكة قذرة كفتاوى التكفير والتبديع والتضليل وإسقاط الشخصيات وإهدار الحقوق وهتك الحرمات.

وتنطلق هذه النزاعات في الغالب من دوافع مصلحية، يكون فيها اختلاف الرأي مبّرراً وعنواناً. ويدفع المجتمع ثمناً باهظاً من وحدته وانسجامه بسبب تلك النزاعات، حيث تحصل حالات خصومة وعداء حتى بين الأقارب والأرحام، ويشككون في تديّن بعضهم بعضاً، ويترامون تُهمَ الانحراف والضلال.



وعادة ما يُستغل الحماس والعاطفة الدينية عند الناس، وخاصة من شريحة الشباب الطيبين، لقذفهم في أتون المواجهة ضد هذه الفكرة أو تلك، ولمحاربة هذه الشخصية أو تلك الجهة، على أساس الدفاع عن العقيدة والمذهب، والانتصار لهذه المرجعية أو هذا التوجه.

ليس من الخطأ أن يقتنع الإنسان برأي، أو ينتمي إلى مدرسة، أو يؤمن بقيادة، أو يثق بمرجعية، كما أن من حقه أن يعبِّر عن رأيه، وأن ينتصر لتوجُّهه، وأن يبشّر بأفكاره، لكن الخطأ هو احتكار هذا الحق لنفسه وإنكاره ذلك على الآخرين.



إننا في ساحتنا الدينية بحاجة إلى الاعتراف بحق الاختلاف، وتعزيز حرية الرأي، ونشر ثقافة التسامح وقبول الآخر. ويجب أن نرفع الصوت عالياً ضد الإرهاب والقمع الفكري، ومحاولات الهيمنة، وفرض الوصاية على عقول الناس وأفكارهم، باسم العقيدة والدين.

والصفحات الماثلة بين يدي القارئ الكريم هي دعوة للتضامن مع حرية الرأي، ولترشيد الحراك الفكري والثقافي في الوسط الديني، ليكون في إطار الاختلاف المشروع، الذي يُثري المعرفة، ويضيء الطريق إلى الحق والصواب، بعيداً عن أساليب البغي والعدوان.

أرجو أن تؤدي هذه الصفحات شيئاً من الغرض المطلوب وأسأل الله تعالى القبول والتوفيق.

حسن الصفار

١٩/ ٤/ ١٤٢٨هـ

٦/ ٥/ ٢٠٠٧م

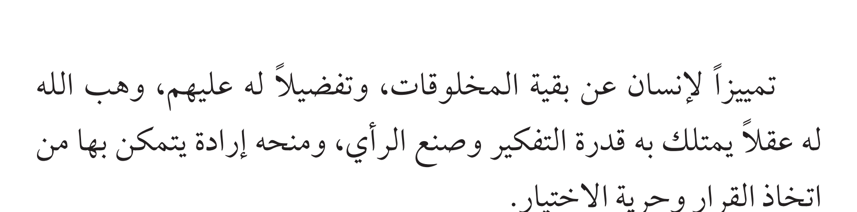






إدارة الصراع الفكري







تمييزاً لإنسان عن بقية المخلوقات، وتفضيلاً له عليهم، وهب الله له عقلاً يمتلك به قدرة التفكير وصنع الرأي، ومنحه إرادة يتمكن بها من اتخاذ القرار وحرية الاختيار.

وبذلك أصبح أهلاً للتكليف والخطاب الإلهي، وكان مؤهلاً للثواب عند الطاعة، مستحقاً للعقاب على المعصية، وبعقله وإرادته يستطيع الإنسان القيام بمهمة عمارة الأرض وتسخير إمكانات الحياة، واستثمار خيرات الكون.

هكذا شاءت حكمة الله تعالى أن يكون الإنسان مفكراً مريداً له حرية القرار والاختيار، لكن بعض الإرادات الشريرة في عالم الإنسان نفسه، ومن وسط أبناء جنسه، تحاول حرمانه من هذه الميزة العظيمة التي منحها الله تعالى إياه.

حيث يسعى بعض الأفراد والفئات لممارسة الهيمنة والتسلط على



من حولهم من البشر، ويصادرون حريتهم في التفكير وحقهم في الاختيار.

لقد عانى الإنسان ولا زال يعاني من نوعين من محاولات الاستعباد والتسلط: استعباد لجسمه يقيّد حركته ونشاطه، وتسلط على فكره يصادر حرية رأيه، وحقه في التعبير عنه.

وإذا كانت مظاهر الاستعباد المادي قد تقلصت، فإن ممارسات الوصاية الفكرية لا تزال واسعة النطاق، خاصة في مجتمعاتنا العربية والإسلامية.





وتعني الوصاية الفكرية: أن جهة ما تعطي لنفسها الحق في تحديد ساحة التفكير أمام الناس، وتسعى لإلزامهم بآرائها وأفكارها عن طريق الفرض والهيمنة.

ومن أبرز مظاهر الوصاية الفكرية ما يلي:

١. فرض الرأي على الآخرين بالقوة، ومصادرة حريتهم في الاختيار.

٢. النيل من الحقوق المادية والمعنوية للآخرين بسبب اختياراتهم الفكرية.

٣. الاحتقار وسوء التعامل مع ذوي الرأي الآخر.

لماذا الوصاية الفكرية؟

إذا كان الله تعالى قد منح الإنسان عقلاً ليفكر به، وإرادة ليقرر ويختار، وليتحمل مسؤولية قراره واختياره، فلماذا يحاول البعض حرمان

الآخرين من استعمال هذه المنحة الإلهية واستثمارها، فيمارسون الوصاية على عقول الآخرين وإراداتهم، فهم يفكرون نيابة عن الناس، وعلى الناس أن يقبلوا آراءهم. ومن تجرأ على المخالفة، ومارس حرية التفكير وحق الاختيار لما اقتنع به من رأي، فله منهم الويل والأذى!! حيث يستعملون ضد المتمردين على هيمنتهم الفكرية كل وسائل الضغط والتنكيل المادية والمعنوية.

إن الدافع الحقيقي لهؤلاء في ممارسة الوصاية الفكرية، هو في الغالب دافع مصلحي، بهدف تحقيق الهيمنة على الآخرين، واستتباعهم للذات.



لكنهم يتحدثون عن دافع آخر يبررون به ممارستهم للوصاية الفكرية، وهو دافع الإخلاص للحق الذي يعتقدونه في رأيهم، والرغبة في نشر الحق وهداية الآخرين إليه.

وإذا ما تأملنا هذا الإدعاء، وناقشنا هذا التبرير على ضوء العقل والشرع، فسنجده ادِّعاءً زائفاً، وتبريراً خاطئاً.

ذلك أن ادِّعاءهم أحقية رأيهم يقابله ادِّعاء مماثل من الآخرين، فكل صاحب دين أو مذهب أو رأي، يرى أحقيَّة مسلكه، فهل يقبلون محاولة الآخرين لفرض رأيهم عليهم؟

إن اعتقاد الإنسان بصواب رأيه، وإخلاصه لذلك الرأي، ورغبته في إتباع الآخرين له، كل ذلك أمر مشروع، ولكن ليس عبر الفرض والوصاية، وإنما عن طريق إقناع الآخرين بذلك الرأي، ومن يرفض



الاقتناع فهو حُرٌّ في اختياره محقًّا كان أو مبطلاً، وليس من العقل والمنطق إجباره.

ولأن الساحة الدينية عادة ما تبتلى بوجود فئات وجهات تمارس الوصاية الفكرية، وتسعى لفرض آرائها، باعتبار ذلك وظيفة دينية، وتكليفاً شرعيًّا، كان لا بد من مناقشة هذه الممارسة على ضوء تعاليم الدين ومفاهيمه.

فهل يشرّع الدين لممارسة الوصاية الفكرية بمعنى فرض الرأي بالقوة، والنيل من حقوق المخالفين، وسوء التعامل معهم؟

إن القراءة الواعية لآيات القرآن الكريم، ونصوص السنة والسيرة النبوية الشريفة، وأقوال وسيرة أئمة أهل البيت عليهم السلام، تكشف عن منظومة من المفاهيم والتعاليم الدينية تؤكد على حرية الإنسان وحقه في الاختيار، وأنه يتحمّل مسؤولية قراره واختياره أمام الله تعالى، وترفض الاستعباد والوصاية الفكرية على الناس.



الخالق لم يفرض الإيمان به

لتقرير حرية الإنسان وتأصيل وجودها، تؤكد كثير من آيات القرآن الكريم، أن الله تعالى لم يشأ أن يفرض الإيمان به على خلقه بالإجبار والقوة، بل أودعهم عقولاً تقودهم نحوه وفطرة ترشدهم إليه، وبعث لهم أنبياء يدعونهم إلى الإيمان به، ثم ترك للناس حرية الاختيار في هذه الحياة.

يقول تعالى:﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ﴾[1].

(١) سورة الكهف: آية ٢٩.



ويقول تعالى:

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[١].

وتشير آيات أخرى في القرآن الكريم إلى أن الله تعالى جعل فرص الحياة متساوية بين المؤمنين والكافرين، يقول تعالى: ﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾[٢].

وإذا كان الله تعالى لم يفرض على عباده الإيمان به قسراً، لتكون الحياة دار اختيار واختبار، كما شاءت حكمته، فكيف يحق لأحد أن يمارس فرض الإيمان على الناس باسم الله ونيابة عنه؟




إنه تعالى لا يريد الإيمان به عن طريق القوة والقسر، لأنه حينئذٍ لن يكون إيماناً حقيقيًّا، ولو أراد الله تعالى إخضاع الإنسان للإيمان قسراً لكان ذلك ميسوراً عليه. يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾[٣].

وبضرس قاطع ورفض صريح، يقول تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[٤]، وقد ورد في سبب نزول هذه الآية أنها نزلت في رجل من الأنصار من بني سالم بن عوف يقال له: الحصين، كان له ابنان نصرانيان، وكان رجلاً مسلماً فقال للنبي ﷺ: ألا أستكرههما فإنهما قد أبيا إلا النصرانية؟ فأنزل الله فيه ذلك[٥].

---

(١) سورة الإنسان: آية ٣.

(٢) سورة الإسراء: آية ٢٠.

(٣) سورة يونس: آية ٩٩.

(٤) سورة البقرة: آية ٢٥٦.

(٥) الطباطبائي: محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ج٢ ص٣٥١، الطبعة الأولى ١٩٩١م، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.

الأنبياء لا يحق لهم الفرض

لو كان الاعتقاد بحقانية الرأي، والإخلاص للفكرة، مبرراً مقبولاً للفرض على الآخرين، وممارسة الوصاية الفكرية، لما حظر الله تعالى ذلك على رسله وأنبيائه. فهم يحملون رسالة الله للناس، وهي حق لا ريب فيه، ولا يمكن أن يزايد عليهم أحد في الإخلاص للحق والاجتهاد في نصرته، ولكن الله تعالى لم يأذن لهم بفرض دعوتهم على الناس قسراً، ولم يسمح لأحد من أنبيائه ورسله أن يمارس الوصاية والهيمنة على اتجاهات الناس واختياراتهم.

حيث ينص القرآن الكريم على أن وظيفة رسل الله تنحصر في حدود إبلاغ الرسالة، لا فرضها بالقوة، يقول تعالى: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾[1].

وحين يرفض الناس دعوة الحق، فإن الرسول يتركهم وشأنهم، وليس مكلفًّا بإجبارهم أو الضغط عليهم، يقول تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾[2].

وقد تكررت هذه العبارة في آيات القرآن الكريم ثلاث عشرة مرة، كقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾[4].

(١) سورة النحل: آية ٣٥.

(٢) سورة آل عمران: آية ٢٠.

(٣) سورة المائدة: آية ٩٢.

(٤) سورة النـور: آية ٥٤.




وتنص آيات أخرى في القرآن الكريم على أنه لا يحق للنبي أن يمارس أيَّ وصاية أو هيمنة على أفكار الناس وآرائهم، يقول تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ! لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾[١].

والخطاب لرسول الله محمد ﷺ أفضل الأنبياء والرسل، الذي بعثه الله تعالى بأكمل الأديان وخاتمها، بأن وظيفته الإلهية هي الدعوة والتذكير، وليس له حق السيطرة والهيمنة على من لا يقبل دعوته.

وفي مورد آخر يخاطب الله تعالى نبيه محمداً ﷺ الذي كان يؤلمه رفض المشركين لدعوته واتهاماتهم الباطلة له، يقول تعالى: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾[٢].

فالنبي ليس جبَّاراً يمارس الهيمنة والفرض على الناس.

وهو ليس مكلفَّاً بالوصاية والرقابة عليهم يقول تعالى: ﴿وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾[٣].

وإذا كان الأنبياء المرسلون من قبل الله تعالى، وهم يحملون الحق الذي لا ريب فيه، لا يجوز لهم ممارسة الفرض والوصاية على أفكار الناس، فهل يا ترى يحقّ لأيِّ جهة أخرى اقتراف هذه الممارسة باسم الربّ وباسم الدين؟

من يحاسب الناس؟

ليس هناك جهة مخولة بمحاسبة الناس على أديانهم ومعتقداتهم في

(١) سورة الغاشية: الآيتان ٢١-٢٢.

(٢) سورة ق: آية ٤٥.

(٣) سورة النساء: آية ٨٠.




الدنيا، فحساب الخلق على الله تعالى يوم القيامة.

ففي الآيات الأخيرة من سورة الغاشية، وبعد حصر مهمة الرسول في التذكير، وأنه لا يحق له الهيمنة والسيطرة على الناس ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾، يقول تعالى: ﴿إِلا مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ* فَيُعَذِّبُهُ الله الْعَذَابَ الأَكْبَرَ * إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾[1].

ورغم أن بعض المفسرين عَدَّ الاستثناء ﴿إِلا مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ﴾ متصلاً بما قبله، فيكون المعنى «لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ إِلا مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ» أن لك السيطرة على من تولى وكفر بمجاهدته ومقاتلته، لكن الرأي الذي يتبناه مفسرون آخرون هو أن الاستثناء منفصل، لا ربط له بما قبله بل بما بعده. وهذا الرأي هو ما يتناسب مع سياق هذه الآيات، ومفاد الآيات الأخرى.




وكما تقرر في أبحاث المحققين والباحثين في السيرة النبوية الشريفة، فإن حروب رسول الله ﷺ كانت دفاعية، ولم تكن لفرض الإسلام على الآخرين بقوة السيف، ولذلك كان يقبل منهم الجزية والبقاء على أديانهم في ظل الحكم الإسلامي.

وتؤكد آيات أخرى في القرآن الكريم على أن الله تعالى وحده هو الذي يتولى حساب العباد على أديانهم ومعتقداتهم، وليس الأنبياء ولا أيّ أحد آخر، منها قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ الله إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ﴾[3].

---

(١) سورة الغاشية: الآيتان ٢٣-٢٦.

(٢) سورة الرعد: آية ٤٠.

(٣) سورة المؤمنون: آية ١١٧.

وفي سياق آخر، حين تتحدث آيات من القرآن الكريم عن تعدد الديانات واختلاف المعتقدات بين بني البشر، فإنها تحيل مهمة الحسم والفصل النهائي بين أتباع الديانات إلى خالق البشر يوم القيامة، وكأن مفهوم هذه الآيات: أن الحياة الدنيا هي دار تعايش وتعامل بين بني البشر على اختلاف أديانهم وآرائهم، وليس من حق أحد منهم أن ينهي ويلغي وجود الآخر، فذلك من اختصاص الخالق وحده.



يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ الله يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ الله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[1].

فهل هناك رؤية أجلى من هذه الرؤية؟ وهل هناك موقف تجاه حرية الاختيار العقدي في الدنيا أوضح من هذا الموقف؟

وجاء التأكيد على هذه الحقيقة في موارد أخرى، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[2]. وضمير (هو) في قوله ﴿هُوَ يَفْصِلُ﴾ ضمير فصل، لقصر الفصل عليه تعالى دون غيره.

وتعالج آيات أخرى في القرآن الكريم موضوع النزاعات الدينية بدعوة الناس إلى تجاوزها وتجميدها، حتى لا تكون سبباً للاحتراب والنزاع، وأن الله تعالى سيقضي في هذه الاختلافات يوم القيامة، وسيعلم الجميع حكمه وقضاءه في خلافاتهم الدينية.

يقول تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاء الله لَجَعَلَكُمْ

(١) سورة الحج: آية ١٧.

(٢) سورة السجدة: آية ٢٥.



أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[1].

جاء في تفسير الميزان للسيد الطباطبائي: «فاستبقوا الخيرات وهي الأحكام والتكاليف، ولا تنشغلوا بأمر هذه الاختلافات التي بينكم وبين غيركم فإن مرجعكم جميعاً إلى ربكم تعالى فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون، ويحكم بينكم حكماً فصلاً،ويقضي قضاءً عدلا»[2].

وقد ورد التعبير ذاته في الآية ١٦٤ من سورة الأنعام: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.



(١) سورة المائدة: آية ٤٨.

(٢) الطباطبائي: محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ج٥ ص٣٦٢.



المواجهة الفكرية

حين يتبنَّى الإنسان رأياً باعتباره حقّاً وصواباً، ويرفض رأياً آخر باعتباره باطلاً وخطأً، فإنه غالباً ما يندفع للانتصار للرأي الذي يؤمن به ويسعى لنشره، كما يهتم بإضعاف جبهة الرأي الآخر، وبخاصة على مستوى الرأي الديني والمعتقدات الفكرية.

ومن المشروع أن يجتهد الإنسان في خدمة متبنياته الفكرية، فذلك هو ما يخلق الحراك الفكري في المجتمع البشري، عبر حالة التنافس، واستثارة العقول، وكشف ثغرات الآراء، وإذا لم يهتم أصحاب الآراءبطرح أفكارهم والدفاع عنها تسود حالة الركود الفكري، والجمود المعرفي.



لكن هناك نهجين في الانتصار للرأي:

١.نهج العنف والقمع لأصحاب الرأي الآخر، بمحاصرتهم والتضييق عليهم، والتنكيل بهم، ليتراجعوا عن آرائهم، ولمنع انتشارها في المجتمع.

٢. نهج المواجهة الفكرية. بالاجتهاد في تبيين الرأي وإثبات صحته وأحقيته بالدليل العلمي والبرهان المنطقي، ونقد الرأي الآخر بكشف نقاط ضعفه، ومكامن الخطأ فيه، وإبطال حججه ومستنداته.

نهج الجبابرة

استعمال العنف ضد الرأي الآخر نهج خاطئ فاشل، فهو مصادرة لحرية الإنسان في أعمق دوائرها، وانتهاك لأقدس حقوقه وأهمها، كما أن تجارب التاريخ قد أثبتت فشل أسلوب العنف في القضاء على الفكر وإنهاء الرأي.

وعادة ما يلجأ الجبابرة الظلمة إلى هذا الأسلوب، حيث يمارسون العنف والقمع ضد أصحاب الرأي الآخر، حين يكون فيه مساس بمصالح سلطتهم، أو لأنهم يريدون التظاهر بحماية الدين، أو لمجرد فرض هيبتهم وتسلطهم وإرعاب الناس.

ومن المؤسف أن كثيرين من الحكام في تاريخ الأمة الإسلامية قد سلكوا هذا النهج، ليس فقط ضد أصحاب الرأي السياسي المعارض، وإنما ضد الآراء الدينية والفكرية، تارة بعنوان الحرب على الزندقة والإلحاد، وأخرى بعنوان التصدي للبدع والأفكار المنحرفة في الساحة الدينية.



لقد رفع الخليفة المهدي العباسي، الذي حكم الأمة من سنة ١٥٨هـ حتى مات سنة ١٦٩هـ، شعار محاربة الزنادقة، حيث بدأت تنتشر بعض أفكار التشكيك في الدين، وبدلاً من مواجهتها بالعلم والمنطق، شهر الحاكم في وجوههم السيف، وكان هناك تسرع كثير في إراقة الدماء وممارسة العنف.

جاء في تاريخ الدولة العباسية للشيخ محمد الخضري بك:

وكان المهدي مغرى بالزنادقة الذين يرفع إليه أمرهم، فكان دائماً يعاقبهم بالقتل، ولذلك كانت هذه التهمة في زمنه وسيلة إلى تشفيٍّ من يحبُّ أن يتشفىَّ من عدو أو خصم..



كان كاتب الدنيا وأوحد الناس حذقاً وعلماً وخبرة الوزير أبو عبيد الله معاوية بن يسار مولى الأشعريين، وكان متقدماً في صناعته، وله ترتيبات في الدولة، وصنف كتاباً في الخراج وهو أول من صنف فيه..

حصل حقد عليه من الربيع الحاجب، فوشى عليه عند المهدي بأن ابنه محمداً متهم في دينه، فأمر المهدي بإحضاره (الولد) وقال: يا محمد، اقرأ، فذهب ليقرأ، فاستعجم عليه القرآن، فقال المهدي لأبيه الوزير أبي عبيد الله معاوية بن يسار: يا معاوية، ألم تخبرني أن ابنك جامع للقرآن؟ فقال: بلى يا أمير المؤمنين، ولكنه فارقني منذ سنين وفي هذه المدة نسي القرآن.

فقال المهدي: قم فتقرب إلى الله بدمه. فذهب ليقوم فوقع.

فقال العباس بن محمد: يا أمير المؤمنين إن شئت أن تعفي الشيخ،



ففعل، وأمر المهدي بابنه فضرب عنقه.[١]

هكذا يكون مجرد الاتهام في الدين، والارتباك في قراءة القرآن مبرراً لقتل هذا الإنسان، وأن يُطلب من أبيه مباشرة عملية القتل!!.

وخلفاء آخرون مارسوا العنف والقمع تجاه من يقولون برأي مخالف في مسألة عقدية جزئية، كما حصل فيما عرف بمحنة القول بخلق القرآن.

فقد كان الخليفة هارون الرشيد يتبنى مقولة أن القرآن ليس مخلوقاً، ويقمع القائلين بفكرة خلق القرآن، حتى قال يوماً: بلغني أن بشر المريسي يقول: القرآن مخلوق. والله والله لئن أظفرني الله به لاقتلنه قتلة ما قتلها أحد. ولما علم بشر ظل متوارياً أيام الرشيد.





وقال بعضهم: دخلت على الرشيد وبين يديه رجل مضروب العنق، والسياف يمسح سيفه في قفا الرجل المقتول، فقال الرشيد: قتلته لأنه قال: القرآن مخلوق.

وفي عهد الخليفة الواثق العباسي تغيّر رأي الحاكم، فتعرَّض من يقول بأن القرآن ليس مخلوقاً للقتل والتنكيل، كما حصل لأحمد بن نصر الخزاعي الذي قبض عليه والي بغداد، وامتحنه الواثق فأصر على رأيه أن القرآن ليس بمخلوق، وأن الله يُرى في الآخرة، فدعا الخليفة بالسيف، وقال: إني احتسب خطاي إلى هذا الكافر الذي يعبد ربّاً لا نعبده، وضرب عنقه، وأمر به فحمل رأسه فنصب بالجانب الشرقي أياماً، ثم بالجانب الغربي أياماً، وعلقت برأسه ورقة «هذا رأس أحمد بن نصر الذي دعاه

(١) الخضري بك: محمد، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة العباسية)، ص٨٩، المكتبة التجارية الكبرى بمصر ١٩٧٠م.



الإمام الواثق إلى القول بخلق القرآن ونفي التشبيه، فأبى إلا المعاندة، فعجل الله به إلى ناره».(١)

طريق الأنبياء

إن الطريق المشروع والنهج الصحيح لنشر أي فكرة ومبدأ، هو عرضها بأحسن بيان، والدعوة إليها بالمنطق والبرهان، والجدال عنها بأفضل أساليب التخاطب مع العقول والنفوس، وذلك هو النهج الإلهي الذي قرَّره القرآن الكريم، يقول تعالى: ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾(٢).

كذلك فإن مواجهة الأفكار الباطلة، والآراء الخاطئة، يكون بنقدها ومناقشتها، وتسليط الأضواء على مكامن انحرافها، ونقاط ضعفها.




إن الرسالات الإلهية تتعامل مع الإنسان باعتباره كائناً عاقلاً مريداً، ولذلك تحترم عقله وتتخاطب معه، وتراهن على الثقة به وحسن اختياره.

كما ترفض أساليب الهيمنة وممارسة الوصاية الفكرية، بما تعني من تجاهل لدور العقل، ومصادرة لحرية الإنسان.

فالتخاطب مع العقل لا يكون بلغة العنف والقمع، وإنما بمنطق

---

(١) حيدر: أسد، الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، ج٤ ص٤٤٣، الطبعة الخامسة ٢٠٠١م، دار التعارف للمطبوعات، بيروت. أيضاً راجع البداية والنهاية لابن كثير ج١٠ ص ٣٢٤، الطبعة الأولى٢٠٠١م، دار الكتب العلمية، بيروت- وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي، ج٥ ص ١٧٦، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت.

(٢) سورة النحل: آية ١٢٥.



الحجة والبرهان: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ (١). ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ (٢). ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾ (٣). ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (٤).

تلك هي المبادئ الناظمة للمواجهة الفكرية، لإثبات حقانية الدين وبطلان ما عداه.

ولا يقبل الإسلام الإساءة إلى المخالف في الدين والرأي لمجرد مخالفته، ما لم يمارس عدواناً يستلزم الردّ والردع.

كما لا ينصح الإسلام بالقطيعة مع المخالفين، بفصل وشائج العلاقات الإنسانية والاجتماعية معهم. بل على العكس من ذلك يوصي بالبر بهم والإحسان إليهم ما داموا مسالمين غير معتدين.




يقول تعالى: ﴿لا يَنْهَاكُمُ الله عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ الله يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾(٥).

وقد ورد في أسباب نزول هذه الآية أن أسماء بنت أبي بكر، قدمت عليها أمها وكان أبو بكر طلّقها في الجاهلية، فقدمت على ابنتها أسماء بهدايا: زبيب وسمن وقرظ، فأبت أسماء أن تقبل هديتها أو تدخلها بيتها، وأرسلت إلى عائشة: سلي رسول الله ﷺ، فقال: «لتدخلها». وفي صحيح

(١) سورة النمل: آية ٦٤.

(٢) سورة الأنعام: آية ١٤٨.

(٣) سورة الأنفال: آية ٤٢.

(٤) سورة البقرة: آية ٢٥٦.

(٥) سورة الممتحنة: آية ٨.



البخاري عن أسماء بنت أبي بكر قالت: قدمت علي أمي وهي مشركة في عهد رسول الله ﷺ فاستفتيت رسول الله ﷺ قلت: إن أمي قدمت وهي راغبة، أفأصل أمي؟ قال: «نعم صلي أمك»[1].

وفي وصية القرآن الكريم بالبر بالوالدين، يشير إلى أن واجب البر بهما، وحسن العلاقة معهما، لا يتأثر بالاختلاف الديني معهما، حتى وإن كانا يأمران الولد بالشرك بالله، يقول تعالى: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾[2].



وكذلك الحال ينسحب على الأرحام والأقرباء، فإن الاختلاف الديني والفكري لا ينبغي أن يؤثر على مستوى التواصل معهم كأرحام، جاء عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه سأله الجهم بن حميد قائلاً: يكون لي القرابة على غير أمري ألهم عليّ حق؟ قال: «نعم حق الرحم لا يقطعه شيء»[3].



إن على المسلم أن يلتزم حسن الخلق مع كل من يتعامل ويتعاطى معه، حيث ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أحسن صحبة من صاحبك تكن مسلما»[4]، وجاء عن حفيده الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «ليس منا من لم يحسن صحبة من صحبه، ومرافقة من رافقه»[5].

---

(١) البخاري: محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، حديث رقم ٢٦٢٠.

(٢) سورة لقمان: آية ١٥.

(٣) المجلسي: محمد باقر، بحار الأنوار، ج٧١ ص١٣١، الطبعة الثانية ١٩٨٣م، دار التراث العربي، بيروت.

(٤) المصدر السابق: ص١٥٩.

(٥) المصدر السابق: ص١٦١.



مرض الساحة الدينية

من أسوأ أمراض الساحة الدينية في مجتمعاتنا، ما يسود معظم أجوائها من حالات الصراع والخصام الداخلي، وسعي بعض الجهات لممارسة دور الوصاية على أفكار الآخرين. فما تراه هي هو الحق المطلق الذي لا يجوز لأحد الخروج عليه، وإلا استحق النَّبذ والطرد، والمحاصرة والإلغاء، وأصبح مستهدفاً في وجوده المادي والمعنوي.

نجد ذلك واضحاً في الخلافات المذهبية، حيث تتبادل الأطراف مع بعضها تُهَم التكفير والتبديع والمروق من الدين، ويجري التحريض على الكراهية في أوساط الأتباع، وقد يصل الأمر إلى إباحة هدر الدماء وانتهاك الحقوق والأعراض.

كما نجد ذلك على مستوى الخلافات داخل المذهب الواحد، حين

تتعدَّد المدارس، وتختلف الآراء في بعض التفاصيل العقدية والفقهية في إطار المذهب نفسه.

إن اعتقاد كل طرف صواب رأيه وخطأ الرأي الآخر أمر مقبول، بناءً على مشروعية حق الاجتهاد، لكن إنكار حق الطرف الآخر في الاجتهاد وإبداء الرأي، والتعبئة ضده بالتشكيك في دينه والحكم بفساد نيته، هو مزلق خطير يؤدي إلى تمزيق الساحة الدينية، وتشويه سمعتها، ودفع أبنائها إلى الصراع والاحتراب، كما حصل بالفعل.

إن التعبير عن الرأي الاجتهادي عقديّاً وفقهيّاً ضمن الضوابط المقررة أمر مشروع، وحق مكفول للجميع، ولا يصح أن تحتكره جهة وتصادره من الآخرين، فإن ذلك إرهاب فكري، وإغلاق فِعليٌّ لباب الاجتهاد، وحرمان للساحة العلمية من الثراء المعرفي.

أما الحذر من وجود آراء خاطئة، وطروحات منحرفة، تخالف المعتقدات السائدة، والاتجاهات الفقهية المشهورة، فهذا لا يقف أمامه القمع والتهريج، وإنما المواجهة العلمية الفكرية، التي تثبت ضعف الرأي الآخر وخطأه، ومكامن الانحراف والثغرات فيه، وتظهر صحة الرأي المتين وأصالته، وتعالج الإشكالات المثارة حوله.

إن أساليب القمع والإرهاب الفكري لا تستطيع أن توقف زحف الرأي الآخر، بل قد تخدمه بإثارة الاهتمام به، وتكتل أتباعه للدفاع عنه، ولتعاطف الكثيرين مع ظلامتهم بسبب ما يستهدفهم من قمع وتشويه، وبخاصة في هذا العصر الذي سادت فيه شعارات الحرية والانفتاح، وتطلعات التغيير والتجديد.

إن تمزيق صفوف المؤمنين وتحويل ساحتهم إلى خنادق للصراع




والاحتراب، ودفعهم إلى انتهاك حرمات بعضهم بعضاً، وإسقاط كل طرف وتشويهه لرموز وشخصيات الطرف الآخر، جريمة أكبر وخطر أعظم من وجود رأي في قضية جزئية نعدّه خاطئاً باطلاً.

ثم إن تعاليم الإسلام وأخلاقياته، وسيرة الأئمة الطاهرين عليهم السلام لا تقبل مثل هذه الأساليب ولا تتطابق معها.

وهناك روايات وردت عن أئمة أهل البيت عليهم السلام يحذِّرون فيها شيعتهم وأتباعهم من نهج الإقصاء والإلغاء لبعضهم بعضاً على أساس الاختلاف في بعض الجزيئات العقدية.



جاء في الكافي عن يعقوب بن الضحاك، عن رجل من أصحابنا سرّاج وكان خادماً لأبي عبدالله رحمه الله قال: جرى ذكر قوم عند أبي عبدالله جعفر الصادق عليه السلام، فقلت: جعلت فداك إنّا نبرأ منهم، إنهم لا يقولون ما نقول.



قال: فقال عليه السلام: يتولّونا ولا يقولون ما تقول تبرؤون منهم؟

قال: قلت: نعم

قال عليه السلام: فهوذا عندنا ما ليس عندكم فينبغي لنا أن نبرأ منكم؟ قال: قلت: لا جعلت فداك قال: وهوذا عند الله ما ليس عندنا أفتراه أطرحنا؟ قال: قلت: لا والله جعلت فداك، ما نفعل؟

قال عليه السلام: فتولّوهم ولا تبرؤوا منهم، إن من المسلمين من له سهم، ومنهم من له سهمان، ومنهم من له ثلاثة أسهم؛ ومنهم من له أربعة أسهم؛ ومنهم من له خمسة أسهم، ومنهم من له ستة أسهم؛ ومنهم من له سبعة أسهم، فليس ينبغي أن يحمل صاحب السهم على ما عليه صاحب السهمين، ولا صاحب السهمين على ما عليه صاحب الثلاثة، ولا

صاحب الثلاثة على ما عليه صاحب الأربعة، ولا صاحب الأربعة على ما عليه صاحب الخمسة، ولا صاحب الخمسة على ما عليه صاحب الستة، ولا صاحب الستة على ما عليه صاحب السبعة.[١]

وقد عقب العلامة المجلسي في (بحار الأنوار) على العبارة الواردة في الرواية «إنهم لا يقولون ما نقول» بقوله: «أي من مراتب فضائل الأئمة عليهم السلام وكمالاتهم ومراتب معرفة الله تعالى، ودقائق مسائل القضاء والقدر، وأمثال ذلك مما يختلف تكاليف العباد فيها، بحسب أفهامهم واستعداداتهم، لا في أصل المسائل الأصولية، أو المراد اختلافهم في المسائل الفرعية، والأول أظهر»[٢].



وفي الكافي أيضاً عن عبدالعزيز القراطيسي قال: قال لي أبو عبدالله عليه السلام: يا عبدالعزيز إن الإيمان عشر درجات بمنزلة السلّم، يصعد منه مرقاة بعد مرقاة، فلا يقولنّ صاحب الاثنين لصاحب الواحد لست على شيء، حتّى ينتهي إلى العاشر، فلا تسقط من هو دونك فيسقطك من هو فوقك، وإذا رأيت من هو أسفل منك بدرجة فارفعه إليك برفق، ولا تحملنّ عليه ما لا يطيق فتكسره، فإنّ من كسر مؤمناً فعليه جبره.[٣]

وعن الصباح بن سيابة، عن أبي عبدالله عليه السلام: قال: ما أنتم والبراءة، يبرء بعضكم من بعض، إن المؤمنين بعضهم أفضل من بعض، وبعضهم أكثر صلاة من بعض، وبعضهم أنفذ بصراً من بعض، وهي الدّرجات.[٤]

---

(١) الكليني: محمد بن يعقوب، الكافي، ج٢ ص٤٢، دار الأضواء، بيروت.

(٢) المجلسي: محمد باقر، بحار الأنوار، ج٦٦ ص١٦٣، الطبعة الثانية ١٩٨٣م، دار التراث العربي، بيروت.

(٣) الكليني: محمد بن يعقوب، الكافي، ج٢ ص٤٥.

(٤) المصدر السابق.



وفي بحار الأنوار عن كتاب الخصال عن عمار بن أبي الأحوص قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: إن عندنا أقواماً يقولون بأمير المؤمنين عليه السلام ويفضلونه على الناس كلّهم، وليس يصفون ما نصف من فضلكم أنتولاهم؟ فقال لي: نعم، في الجملة، أليس عند الله ما لم يكن عند رسول الله، ولرسول الله صلى الله عليه وآله: [من] عند الله ما ليس لنا، وعندنا ما ليس عندكم، وعندكم ما ليس عند غيركم؟[1]

وجاء عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: قلنا له: من وافقنا من علوي أو غيره تولّيناه، ومن خالفنا برئنا منه من علوي أو غيره، قال: يا زرارة قول الله أصدق من قولك، أين الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً.[2]

وعن محمد بن عيسى، عن القاسم الصيقل رفع الحديث إلى أبي عبدالله عليه السلام قال: كنّا جلوساً عنده، فتذاكرنا رجلاً من أصحابنا، فقال بعضنا: ذلك ضعيف، فقال أبو عبدالله عليه السلام: إن كان لا يقبل ممن دونكم حتى يكون مثلكم لم يقبل منكم حتى تكونوا مثلنا.[3]

إنارة العقول أو تجييش العواطف

في مواجهة التحديات المعرفية الخطيرة أمام الفكر الديني، وفي مقابل الطوفان الثقافي العالمي الجارف الذي يقتحم كل زوايا مجتمعنا وغرف بيوتنا، ويستقطب بوسائله الإعلامية والمعلوماتية المتطورة اهتمامات أبنائنا وبناتنا، هناك حاجة ماسة لتكثيف العطاء الفكري والثقافي من قبل المرجعيات والجهات الدينية.

(١) المجلسي: محمد باقر، بحار الأنوار، ج٦٦ ص١٦٩.
(٢) المصدر السابق: ص١٧٤.
(٣) المصدر السابق.




كما أن تطور الحياة وتقدم مستوى العلم والمعرفة يستوجب تطوير استراتيجيات الطرح الديني، وتجديد خطط التثقيف والتوجيه.

إن على الساحة الدينية أن تثبت قدرتها على مواكبة التغيرات والاستجابة للتحديات. وذلك لا يتحقق إلا بتوجيه الاهتمام نحو التحديات الكبيرة، وبتضافر الجهود نحو الأهداف المشتركة، أما الانشغال بالخلافات الجانبية والقضايا الجزئية، فإنه يشكل هروباً من المعركة الأساس، ويضعف كل القوى الدينية.

لقد أصبحت حرية الرأي شعاراً ومطلباً لكل المجتمعات والشعوب، وأصبح الانفتاح والحوار بين الحضارات والثقافات نهجاً يتطلع إليه عقلاء البشر على مستوى العالم، فكيف سيقدم المتدينون أنفسهم أمام الآخرين، وهم لا يتحملون بعضهم بعضاً، ولا يحتكمون للحوار في خلافاتهم، ولا يستطيعون التعايش فيما بينهم واحترام بعضهم بعضاً؟



إن السمة الغالبة على من يمارسون الوصاية الفكرية استثارتهم لانفعالات المتدينين وتجييشهم لعواطفهم، بعنوان حماية العقيدة والدفاع عن الثوابت والمقدسات، لكنهم لا يبذلون جهداً يناسب التحديات المعاصرة في إيضاح أصول العقيدة، وكأن العقيدة تتلخص عندهم في القضايا الجزئية التي يختلفون فيها مع الآخرين، كما أن بعضهم يخلط الأوراق في تحديد الثوابت والمقدسات، وكأنها قضايا اعتبارية، فالثابت والمقدس ما يعدُّونه هم كذلك دون مقاييس واضحة متفق عليها.

إننا بحاجة إلى تنوير العقول بالبحث العلمي والطرح المنطقي، وليس مجرد تجييش العواطف وإثارة الأحاسيس.







قضايا العقيدة والتواصل المعرفي








شهدت ساحة الأمة في هذا العصر، بداية تواصلٍ معرفي يبشّر بالخير بين نخبها العلمية والفكرية، لكنها اتجهت غالباً صوب المجالين الفقهي والثقافي.

ففي المجال الفقهي صدرت عام ١٩٦١م موسوعة جمال عبدالناصر الفقهية من القاهرة، لتذكر آراء المذاهب الإسلامية في مسائل الفقه جنباً إلى جنب، المذاهب الأربعة والمذهب الظاهري ومذهب الإمامية ومذهب الزيدية ومذهب الاباضية.

وصدرت مجموعة من الكتب الفقهية التي تتناول آراء مختلف المذاهب في جميع أبواب الفقه الإسلامي أو بعضها. ككتاب (الفقه على المذاهب الخمسة) للشيخ محمد جواد مغنية، وموسوعة (الفقه الإسلامي وأدلته) للدكتور وهبة الزحيلي، وكتاب (الأحوال الشخصية) للشيخ محمد أبو زهرة، وكتاب (أحكام الأسرة في الإسلام) للدكتور محمد مصطفى شلبي، وغيرها كثير.

وكان تأسيس (مجمع الفقه الإسلامي) بالقرار الصادر عن مؤتمر

القمة الإسلامي الثالث المنعقد بمكة المكرمة، بتاريخ ١٩-٢٢ ربيع الأول ١٤٠١هـ الموافق ٢٥-٢٨ يناير ١٩٨١م خطوة رائدة على هذا الصعيد.

حيث يتكون هذا المجمع من علماء وفقهاء يمثلون كل الدول الإسلامية الأعضاء في منظمة المؤتمر الإسلامي بمذاهبها المختلفة، من السنة والشيعة والزيدية والاباضية.

وينتظم أعضاؤه في شعب متخصصة لها لجان فرعية، ومن شعبه شعبة التقريب بين المذاهب، وفي كل دورة من دورات المجمع تناقش قضية أو أكثر من قضايا الفكر والفقه الإسلامي، حسب تخطيط مسبق من قبل الأعضاء المشاركين. كما تصدر عن المجمع مجلة تتضمن البحوث المقدمة والمداخلات والتعقيبات، بعنوان (مجلة مجمع الفقه الإسلامي) وقد صدر منها أربعون مجلداً.




ومن الإنجازات الطيبة التي قام بها مجمع الفقه الإسلامي لتفعيل حركة التواصل المعرفي بين المذاهب الإسلامية، ما قرَّره المجمع في دورته الثالثة المنعقدة بعمَّان – الأردن بتاريخ ٨ صفر ١٤٠٧هـ من تشكيل لجنة لدراسة مشروع تحت اسم مَعْلَمَة القواعد الفقهية يستهدف الدراسة المقارنة للقواعد الفقهية في شتى المذاهب، وبعد سنوات عقدت ندوة خاصة لمتابعة المشروع انتهت بالاتفاق على مقترح للوفد الإيراني يتلخص في أن يقوم ممثلو كل مذهب بانتخاب عمدة الكتب الأصيلة الفقهية والأصولية لديهم، ثم استخلاص القواعد منها، مع الإشارة إلى المصادر في كل كتاب. ويعتمد ذلك مرجعاً ومصدراً لرأي المذهب على هذا الصعيد.



وقد أنجز الجانب الإيراني مهمته بتشكيل لجنة من الحوزة العلمية قامت بإعداد كتاب جامع للقواعد الأصولية والفقهية للمذهب الإمامي طبع في ثلاثة مجلدات، هذا العام ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

أما على الصعيد الثقافي: فحركة التواصل بين مفكري الأمة وعلمائها ومثقفيها من مختلف المذاهب والتيارات أقوى وأنشط، فهناك أكثر من مؤتمر ولقاء يعقد كل عام في مختلف أنحاء العالم، لتناول قضايا الإسلام وأوضاع الأمة، وهناك عدد من المجلات الفكرية الثقافية: العامة أو المتخصصة التي يشارك في تحريرها كتاب من مختلف الاتجاهات والمذاهب في الأمة.



ضعف التواصل عقدياً

لكن مجال البحوث العقدية، وميدان علم الكلام، هو ما تشكو فيه حركة التواصل المعرفي بين مذاهب الأمة وتياراتها من الخمول والركود.

حيث لا زال هذا الميدان ساحة للصراع، ومعتركاً للنزاع، تسود أجواءه حالة التوتر، وتسيطر على حركته حالة التشنج.

ويبدو لي أن العلماء الناضجين في الأمة لم يولوا هذا المجال ما يستحق من عناية واهتمام، وتركوه لتفاعلات تراث العصور الماضية، بما فيه من خصومات وخلافات، فأصبح ساحة للقوى المتطرفة المتعصبة من مختلف المدارس والمذاهب.

وأكبر شاهد على ذلك كتابات التهريج ضد هذا المذهب أو ذاك، وفتاوى التكفير ضد هذه الطائفة أو تلك، والمناظرات غير العلمية التي



تبثها بعض الفضائيات، والمشتملة على كثير من الإثارات والمهاترات التي تؤجج نار العداوة والبغضاء بين المسلمين.

وعلى شبكة الانترنت تخصصت مواقع طائفية كثيرة لتبادل الاتهامات والمطاعن والسباب والشتائم.

ولا شك أن القضية العقدية هي الأكثر أهمية على المستوى الديني، فهي أساس الدين وجوهره وعمقه وأصله، كما أن لها تأثيرها الكبير على مشاعر الإنسان وتوجهاته السلوكية والعملية.

وإذا كان التعارف والتواصل مطلوباً بين أبناء الأمة في مختلف المجالات، فهو في المجال العقدي أكثر أهمية وفائدة.

وذلك للأسباب التالية:



أولاً: يساعد الإنسان المسلم على اكتشاف الحق ومعرفة الصواب في مسائل العقيدة، عن طريق اطلاعه على مختلف الآراء، وفهمه لأدلتها، فليس صحيحاً أن يسترسل الإنسان في معتقداته مع ما ورثه من آبائه وأجداده، أو ما أَلِفَه في بيئته ومحيطه، دون بحث وتمحيص، ودليل وبرهان.

ثانياً: إن القراءة الموضوعية لآراء الفرق والاتجاهات العقدية الأخرى، تمكن الإنسان من معرفة الآخرين على حقيقتهم وواقعهم، بينما تكون القطيعة المعرفية سبباً للجهل بالآخر، ورسم صورة غير دقيقة عن توجهاته.

إن بعض المسلمين يسيئون الظن ببعضهم الآخر، ويحكمون عليهم أحكاماً جائرة، بناءً على مقدمات خاطئة، ومعلومات مغلوطة، قد تؤخذ



عن طريق مناوئيهم وخصومهم.

وهذا ما حذَّر منه القرآن الكريم ﴿فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ﴾.

ولعل أكثر المصادر التي تتحدث عن الملل والنحل، والمذاهب والفرق، مصابة بهذا الخلل الكبير، والمؤسف أن مصدراً حديثاً هو (الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة) أصدرته مؤسسة إسلامية عالمية هي (الندوة العالمية للشباب الإسلامي) وروجته بشكل مكثف وبطبعات متعددة، لكنه يقدم سائر المذاهب والاتجاهات الإسلامية المخالفة للنهج السلفي، بصورة مشوهة، وبأسلوب يقطر حقداً وتعصباً.



وكأن الجهة التي أصدرته تريد نشر الخصومة والعداوة بين أجيال الأمة المعاصرة. وما نأمله هو سرعة المبادرة لإعادة النظر في موادّ هذه الموسوعة من قبل الجهة التي أصدرتها.

إن مثل هذه الجهود البغيضة تؤكد ضرورة الانفتاح والتواصل المعرفي المباشر بين المدارس الكلامية والاتجاهات العقدية في الأمة، وبخاصة على صعيد النخبة العلمية.

ثالثاً: إن التواصل العلمي، وتدارس القضايا بموضوعية وإخلاص، على أي صعيد ديني ومعرفي، يتيح المجال لبلورة الرأي، وتكامل الفكر، وحل العُقَد، ومعالجة الثغرات.

وكما يمكن التقارب والتكامل في معالجة قضايا الفقه والثقافة، فإنه يمكن الوصول إلى بعض المعالجات وتصحيح بعض الآراء في المسائل الكلامية والعقدية.



وبخاصة أن بعض الخلافات كانت تغذيها عوامل سياسية ومصلحية، في التاريخ الماضي، وقد تجاوزتها الأمة.

رابعاً: هناك مسائل جديدة في علم الكلام تشكل تحديّاً أمام العقيدة الإسلامية ككل، وهي تستوجب تعاوناً بين علماء الأمة المتخصصين من مختلف المذاهب، لتوضيح الرؤية الإسلامية تجاه هذه المسائل المطروحة في أذهان الجيل المسلم المعاصر.

لهذه الأسباب وغيرها يتوجب الاهتمام ببعث حركة علمية معرفية، للتواصل والانفتاح بين علماء الأمة المهتمين ببحوث العقيدة وعلم الكلام، من مختلف المدارس والمذاهب.



مقترحات للتواصل

إن ساحة الأمة، وبخاصةٍ في هذا العصر الذي تشتد فيه التحدّيات، وتتّسم أجواؤه بالانفتاح المعرفي، بحاجة إلى مبادرات جريئة لكسر حالة الجمود والقطيعة على الصعيد العقدي معرفيّاً، وتوفير فرص التواصل العلمي، وعرض الآراء والأفكار بموضوعية وإنصاف، ويمكن أن تكون المقترحات التالية سبيلاً للتواصل:

١. إنشاء كلية لدراسة العقائد وعلم الكلام المقارن على نسق دراسة علم الفقه المقارن.

٢. تشكيل مؤسسة علمية إسلامية، تهتم بالدراسات والبحوث العقدية، بمشاركة علماء ومفكرين يمثلون مختلف المدارس الكلامية في الأمة، على غرار مجمع الفقه الإسلامي. ونتمنى تكرار التجربة الرائدة لمجمع الفقه الإسلامي التي سبقت الإشارة إليها:



من تكليف ممثلي كل مذهب بتقديم رأي مذهبهم على صعيد القواعد الأصولية والفقهية، نتمنى حصول مثل ذلك على الصعيد العقدي أيضاً، بأن يقدِّم العلماء من كل مذهب آراءهم العقدية والكلامية بأسلوب علمي موثق، ليكون ذلك هو المصدر والمرجع المعتمد لدى الآخرين عنهم.

٣. إصدار مجلة متخصصة ببحوث علم الكلام والدراسات العقدية، تنفتح على مختلف التوجهات، بنشر كتاباتها العلمية، وإجراء الحوارات مع شخصياتهم المعرفية.

٤. عقد مؤتمرات تخصصية تناقش قضايا العقيدة وعلم الكلام، تشارك فيها مختلف المدارس، ويبحث كل مؤتمر قضية محددة، مثلاً: مسألة العصمة، أو القضاء والقدر، أو أسماء الله وصفاته، أو الإمامة... وكذلك بحث المسائل الجديدة في علم الكلام كالتعددية الدينية، والعلاقة بين الدين والعلم، والهرمنوتيك أو تفسير النصوص..




قد يقال إن ما تواجهه الأمة من تحدِّيات سياسية واقتصادية أولى بالاهتمام من هذه البحوث النظرية، لكني أجيب مع إدراكي لخطورة التحديات المذكورة، بأن إهمال ساحة البحث العقدي، يسبب الكثير من عوامل الخلل والإضعاف لقدرة الأمة على مواجهة تلك التحديات، ومن مظاهر الخلل إتاحة الفرصة للمتعصبين والمغرضين، ليعبثوا بوحدة الأمة، ويمزقوا صفوفها بطروحاتهم الطائفية المتشنجة، فلا بد من مواجهتهم بالطروحات العلمية الموضوعية.

كما أن لقضايا العقيدة تأثيراً لا يمكن إنكاره وتجاهله في نفوس أبناء الأمة، وتشكيل فكرهم الديني، وعلاقاتهم مع بعضهم، فلماذا نترك هذه القضايا المهمة خاضعة لتأثير الموروث التاريخي، وضمن حالة المفاصلة والقطيعة، ولغة الانفعال والعاطفة؟ أليس من الأفضل الارتقاء بالشأن العقيدي إلى لغة العلم والمعرفة، وضمن أفق التواصل والحوار.

القرآن دعوة إلى الانفتاح

لن تجد في أيِّ ثقافة من الثقافات دعوة إلى الانفتاح المعرفي أوسع مما دعت إليه الآية الكريمة: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمْ الله وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ (1).



إنها تزفّ البشارة من الله تعالى لمن يتصفون بالانفتاح على المعرفة، وممارسة النقد والتقويم الموضوعي، فهم يبحثون عن الآراء والأفكار، حيث ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ﴾، والاستماع درجةٌ متقدمة على السماع، لأن الاستماع يدل على قصد واهتمام، بينما السماع قد لا يكون كذلك. وبعد الاستماع والاطّلاع على مختلف الآراء، تأتي مهمة النقد والتقويم، لاختيار الرأي الأصوب والفكرة الأصح، ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾.

فالانفتاح المصحوب بإعمال الفكر، واسترشاد العقل، لا خوف منه ولا ضير فيه، بل هو طريق الهداية إلى الحق والخير.

قال ابن عاشور في تفسيره للآية الكريمة: (والتعريف في (القول) تعريف الجنس، أي يستمعون الأقوال مما يدعو إلى الهدى مثل القرآن وإرشاد الرسول ﷺ، ويستمعون الأقوال التي يريد أهلها صرفهم عن

---

(١) سورة الزمر: الآيتان: ١٧– ١٨.



الإيمان من ترَّهات أئمة الكفر فإذا استمعوا ذلك اتبعوا أحسنه وهو ما يدعو إلى الحق)[١] .

وفي الآية الكريمة دلالتان مهمَّتان:

الأولى: تأكيد الثقة بعقل الإنسان، فهو المرجعية المعتمدة للتمييز بين الحق والباطل، وبين الخير والشر.

الأخرى: الثقة العالية للدين بأحقيته وأفضليته، لذلك فهو لا يخشى من انفتاح أبنائه على غيره من الأديان والآراء، إذا ما عرفوا حقائق الدين ووظفوا عقولهم في المقارنة والتمييز.

وهناك نصوص دينية أخرى، تشجع الإنسان المؤمن على أن يتطلب كل فكرة نافعة، بغض النظر عن مصدرها. كالحديث الوارد عن رسول الله ﷺ: (الكلمة الحكمة ضالة المؤمن، فحيث وجدها فهو أحق بها)[٢]، وروي عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام قوله: (الحكمة ضالة المؤمن فاطلبوها ولو عند المشرك تكونوا أحق بها وأهلها)[٣]. وفي كلمة أخرى عنه عليه السلام: (الحكمة ضالة المؤمن فخذ الحكمة ولو من أهل النفاق)[٤].



مع وضوح هذه الرؤية الإسلامية إلا أن حالات التعصب المذهبي أصابت بعض أوساط نخب الأمة بداء الانغلاق والقطيعة المعرفية، فيما بين المدارس والاتجاهات الفكرية في الأمة.

---

(١) ابن عاشور: محمد الطاهر، التحرير والتنوير، ج ٢٤ ص ٥١، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م، مؤسسة التاريخ، بيروت.

(٢) الترمذي: محمد بن عيسى، سنن الترمذي، حديث رقم ٢٦٨٧، الطبعة الأولى٢٠٠٠م، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٣) الريشهري: المحمدي، ميزان الحكمة، رقم ٤٢١٠.

(٤) نهج البلاغة: قصار الكلمات، رقم ٨٠.



ومن المؤسف أن نقرأ لبعض علماء المسلمين أنهم يفتخرون بتجاهلهم للرأي الآخر، وإعراضهم عن مجرد قراءته والاطلاع عليه.

فمثلاً نقرأ ما كتبه الحافظ المؤرخ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (توفي ٧٤٨هـ) وهو عالم مؤلف شهير، حينما يُترجم في كتابه (سير أعلام النبلاء) للشيخ المفيد محمد بن النعمان البغدادي (توفي ٤١٣هـ) وهو من أبرز علماء الشيعة ومقرِّري آرائهم العقدية، فإن الشيخ الذهبي يحمد الله تعالى أنه لم يقرأ شيئاً من مؤلفات هذا العالم الذي يُمثل مدرسةً فكرية عقدية في ساحة الأمة.




والغريب أن الشيخ الذهبي ينقل كلمات الإشادة والإطراء من قبل العلماء والمؤرخين بشخصية الشيخ المفيد، وأن من صفاته الاهتمام بالاطلاع على كتب المخالفين لمذهبه فيقرأها ويحفظها!!

يقول الذهبي: عالم الرافضة، صاحب التصانيف، الشيخ المفيد، واسمه: محمد بن محمد النعمان، البغدادي الشيعي، ويُعرف بابن المعلّم، كان صاحب فنون وبحوث وكلام واعتزال وأدب، ذكره ابن أبي طي في تاريخ الإمامية، فأطنب وأسهب وقال: كان أوحد في جميع فنون العلم: الأصلين والفقه والأخبار ومعرفة الرجال والتفسير والنحو والشعر. وكان يُناظر أهل كل عقيدة مع العظمة في الدولة البويهية، والرتبة الجسيمة عند الخلفاء، وكان قوي النفس كثير البر، عظيم الخشوع، كثير الصلاة والصوم، يلبس الخشن من الثياب، وكان مديماً للمطالعة والتعليم، ومن أحفظ الناس. قيل: إنه ما ترك للمخالفين كتاباً إلا وحفظه، وبهذا قدر على حل شبه القوم، وكان من أحرص الناس على التعليم... إلى أن قال: مات سنة ثلاثة عشر وأربع مائة، وشيعه ثمانون

ألفاً، وقيل بلغت تواليفه مائتين، لم أقف على شيءٍ منها ولله الحمد[١].

وقد تجد مثل هذه الحالة في أتباع مختلف المذاهب، فلا بد من توفير أجواء دافعة للتواصل، لتتجاوز الأمة حالات القطيعة، وعوامل الفرقة والتمزق.

(١) الذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء، ج ١٧ ص ٣٤٤، الطبعة التاسعة ١٩٣٩م، مؤسسة الرسالة، بيروت.









كل جيل يأتي فهو جديد على الحياة، لا معرفة له بمعادلاتها، ولا خبرة له بأوضاعها، فيحتاج إلى رؤية ينظر من خلالها للحياة، وإلى مفاهيم تنّظم تفكيره، وإلى منهجية في طريقة العيش، وأنماط السلوك، يقول تعالى: ﴿وَالله أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾[1].

ولأن نشأة الجيل الجديد تكون في أحضان الجيل السابق، فمن الطبيعي أن يرث عنه رؤيته ونظرته، وأسلوبه في المعيشة والحياة، كما يأخذ عنه لغة الكلام، وطريقة الحركة، حيث يتربى على ذلك، وتنغرس في نفسه عن طريق المحاكاة والتقمص، ويتمسك بها كجزء من انشداده العاطفي لأسلافه وماضيه.

ثم إن تراث الآباء، هو الخيار الأسهل، والأقرب تناولاً للإنسان، في بحثه عن رؤية للحياة، وطريقة للعيش فيها.

هذا هو تفسير توارث الأجيال للأفكار والمفاهيم والتقاليد السلوكية، التي قد ينالها التطوير والتغيير بتعاقب الأجيال، لكن مع المحافظة على التوجهات الأساس.

(١) سورة النحل: آية ٧٨.



وقد تحصل طفرة لدى جيل معيَّن، ينقلب على مِلة أسلافه، لانبثاق حركة تمرد ثقافي، نحو الأفضل، كالاستجابة لدعوات الأنبياء، أو نحو الأسوأ، كحالات الارتداد والانحراف عن منهج الله تعالى..

مفهوم التراث

التراث لغة لفظ مرادف لـ(الإرث) و (الوِرث) و(الميراث)، وكلها من مادة (و.ر.ث)، وهي تطلق على ما يخلفه الإنسان لورثته من مال أو حسب.

فما يتركه السابق للاحق من مكاسب مادية أو معنوية يسمى تراثاً.

وقد استخدم القرآن الكريم مشتقات مادة (و.ر.ث) للدلالة على انتقال الثروات المادية، والثروات المعنوية الفكرية.



فمن النوع الأول قوله تعالى: ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا﴾[١]. أي تأكلون حصص شركائكم الضعفاء من الميراث، وتجمعونها وتلمونها إلى حصتكم، وقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾[٢].

ومن إطلاق الإرث على الموروث الروحي والثقافي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾[٣]. والكتاب هو الرسالة الإلهية. ومثله قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾[٤]. وجاء هذا الاستعمال في آيات أخرى من القرآن الكريم.

(١) سورة الفجر: آية ١٩.

(٢) سورة النساء: آية ١١.

(٣) سورة فاطر: آية ٣٢.

(٤) سورة غافر: آية ٥٣.



كما ورد في أحاديث الرسول ﷺ إطلاق الإرث على التقاليد المتوارثة: فقد بعث ﷺ ابن مربع الأنصاري إلى أهل عرفة ليقول لهم: (اثبتوا على مشاعركم هذه، فإنكم على إرث من إرث إبراهيم)[1] إشارة إلى أن مناسك الحج وشعائره هي من تراث نبي الله إبراهيم عليه السلام الموحى إليه من قبل الله تعالى.

ومن أقوال الإمام علي عليه السلام: (العلم وراثة كريمة)، (ولا ميراث كالأدب).

من هذه النصوص وأمثالها يظهر استعمال مشتقات مادة (و.ر.ث) في معنى الموروث المعنوي والثقافي، وليس فقط الموروث المادي. بل إن بعض النصوص تؤكد على إرادة الموروث الثقافي في استخدامها لمادة (و.ر.ث)، وتنفي إرادة وراثة المال كالحديث الوارد عن رسول الله ﷺ الذي نقلته مختلف المصادر، كسنن أبي داود، وسنن ابن ماجة، وسنن الدارمي، وسنن الترمذي، وبحار الأنوار، وغيرها، عن أبي الدرداء عنه ﷺ: (إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، إنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر)[2]. لذلك نستغرب ما ذكره الدكتور محمد عابد الجابري من النفي الجازم لهذا الاستعمال في الخطاب العربي القديم، حيث قال: (ويمكن أن نلاحظ بالإضافة إلى ما تقدم أنه لا كلمة (تراث) ولا كلمة (ميراث) ولا أيًّا من المشتقات من مادة (و.ر.ث) قد استعمل قديماً في معنى الموروث الثقافي والفكري حسب ما نعلم وهو المعنى الذي يعطى لكلمة (تراث) في خطابنا



(١) ابن ماجة: محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجة، ج٢ ص١٠٠٢، حديث رقم ٣٠١١، دار الفكر، بيروت.

(٢) المصدر السابق: ج١ ص٨١، حديث رقم ٢٢٣.



المعاصر. إن الموضوع الذي تُحيل إليه هذه المادة ومشتقاتها في الخطاب العربي القديم كان دائماً: المال، وبدرجة أقل: الحسب. أما شؤون الفكر والثقافة فقد كانت غائبة تماماً عن المجال التداولي، أو الحقل الدلالي، لكلمة (تراث) ومرادفاتها)[1].

الأمة والتراث

إن تراث أيّ أمة هو موروثها الثقافي والفكري والديني والأدبي والفني الذي تتناقله وتتوارثه أجيالها.

وتتفاوت الأمم في حجم مخزونها التراثي، تبعاً لتفاوت مستويات حضاراتها، فالحضارة الأقوى تنتج تراثاً أكبر وأرقى، لذلك نجد الموروث الثقافي لبعض الأمم محدوداً ومتواضعاً، بينما يكون واسعاً ثريًّا لدى أمم أخرى.




كما أن درجة التمسك والتعلّق بالتراث تختلف من أمة إلى أخرى، ومن جيل إلى آخر، بفعل عوامل وأسباب مختلفة.

والأمة الإسلامية من أكثر أمم الأرض اهتماماً وتعلُّقاً بتراثها، لما له من صفة وصبغة دينية، تجعله موضع القداسة والتعبّد، وهو تراث واسع شامل يغطي مختلف مجالات الفكر والسلوك، لطبيعة شمولية الرسالة الإسلامية، ومعالجتها لكافة جوانب الحياة الفردية والاجتماعية، المادية والروحية.

كما أن مستوى التقدم والرقي الذي حققته الحضارة الإسلامية في

---

(١)الجابري: محمد عابد، التراث والحداثة، ص٢٢، الطبعة الأولى ١٩٩١م، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.



عهود سابقة، أنتج زخماً كبيراً من التجارب والخبرات، وثروة هائلة من المعارف والثقافات.

وقد يكون من أسباب تعلق الأمة بتراثها الإسلامي، إضافة إلى ما سبق، ما واجهته الأمة في هذه العصور المتأخرة، من نكبات وصدمات، رأت فيها تهديداً لوجودها وهويَّتها، وخاصة تلك المحاولات والمخططات التي تستهدف تراث الأمة، وانتماءها الديني لإصابتها بالهزيمة النفسية، وتجريدها من منابع قوتها وصمودها، وإلغاء وحدتها، باعتبار أن تراثها الديني هو محور تلك الوحدة والارتباط بين مجتمعاتها وشعوبها المتعددة الأعراق والقوميات والبقاع.

في مواجهة هذه الأخطار والتهديدات، وكردٍّ فعل لها، ازداد تمسك الأمة بتراثها، واحتمائها بدينها، كحصن للحفاظ على الهوية، وملجأ للدفاع عن الذات.

وفشلت محاولات فصل الأمة عن تراثها، مع ما توفر لتلك المحاولات من إمكانات هائلة، وقدرات ضخمة، حيث تطابقت أطماع قوى دولية خارجية، مع توجُّهات قوى مغرضة داخلية، وصل بعضها إلى مواقع السلطة والحكم بدعم خارجي، لتنفيذ مخططات طمس هوية الأمة وقطعها عن تراثها. وقد بلغ الأمر ببعض تلك القوى المتسلطة أن تتدخل حتى في الحريات الشخصية، فتمنع النساء المسلمات من ارتداء الحجاب، وتعاقب المواطن المسلم على أداء فريضة الصلاة.

وقد نشرت صحيفة الحياة في ملحقها الأسبوعي (الوسط)، تقريراً عن الإجراءات التي تتخذها قيادة الجيش التركي بحق من يلاحظ عليه





أداء الصلاة، أو التزام زوجته بالحجاب، من جنود وضباط الجيش. ومما جاء فيه:

منذ العام ١٩٩٦م جرى طرد أكثر من ١٣٥٠ ضابطاً وضابط صف من الجيش التركي، فإذا أضفنا إليهم أولئك الذين طردوا من الجيش خلال سنوات دراستهم، في الكليات العسكرية، والآخرين الذين فضلوا التقاعد من الجيش باكراً، فإن العدد سيصبح ما بين ٣٥٠٠ و ٤٠٠٠ ضابط. ولكن ما هو الخطأ الذي ارتكبه كل هؤلاء؟

(السلوك غير المنضبط) الحقيقة إن ما يتهمون به إنما هو الصلاة في المساجد، لاسيما أن زوجاتهم متهمات بارتداء الحجاب، والقرار الذي يتخذه المجلس العسكري الأعلى في هذا الشأن مبرم عادة.



ونقل التقرير عن أحد الضباط المطرودين بعد ٢٢ سنة من الخدمة في الجيش، (عبدالواحد قولجي) قوله: ذات يوم قال لي قائدي: عليك أن تطلب من زوجتك رفع حجابها، وإلا فإنك ستطرد من الجيش. فأجبته: بأن الحجاب جزء من ديني، فإذا كنتُ مؤمناً عليَّ أن احترم قواعد الدين. وبعد بضعة شهور، طردت من الجيش قبل موعد تقاعدي بخمس سنوات، وخسرت كل شيء، عملي، ومرتبي، وضماني الاجتماعي.

وفي قصة مشابهة يقول ضابط آخر (مصطفى ايرول): كان من عادتي أن أذهب للصلاة في قاعة المصلى في الثكنة مع ٣ أو ٤ جنود بسطاء، وكان من سوء حظي، ذات يوم، أن الضابط المسؤول عن المراقبة، زار المصلَّى، ورآني وأنا أؤدي الصلاة، فسألني: لماذا تصلي؟ هل تصوم رمضان أيضاً؟.. وتم نقله إلى منطقة نائية عقوبة ثم انتهى الأمر إلى طرده[1].

(١) الحياة الأسبوعية، الوسط، لندن، عدد ٦١٠، بتاريخ ٦ تشرين الأول ٢٠٠٣م.



وتحصل مثل هذه الأمور في أكثر من بلد إسلامي، لكن نتائجها في الغالب عكسية، حيث يزداد إصرار الأمة على دينها وتراثها، وأوضح دليل على ذلك هذه الصحوة الإسلامية الواسعة في أوساط مختلف شعوب الأمة ومجتمعاتها.

مراجعة التراث

إن حرص الأمة على تراثها، واحترامها لتاريخها وأسلافها، لا ينبغي أن يؤدي إلى حالة من الأسر والانبهار، والتوقف والجمود، فذلك يعني الخروج من معادلة التاريخ، وانتهاء الدور الحضاري، والقبول بالتخلف عن مسيرة الحياة.



فتراث الأمة في مجمله عدا النصوص الشرعية الثابتة، يعبّر عن جهد بشري، في الفكر والممارسة، بذلته الأجيال السالفة، وهو محصلة خبراتها وتجاربها.

ولا يمكن ادِّعاء العصمة والكمال لأي جهد بشري، باستثناء ما صدر عن وحي إلهي، وتسديد خاص (عصمة)، لذلك من الطبيعي أن يحتوي التراث على نقاط الضعف والقوة، والغث والسمين، والخطأ والصواب، كما أن تناقل التراث عبر مسيرة زمنية، تجعله معرضاً للشوائب والتحريفات.

وليس كل ما في التراث – وإن كان صحيحاً– قابلاً للتمثل والمحاكاة في كل عصر، ذلك أن اختلاف العصور والظروف قد ينشئ اختلافاً في المفاهيم والقيم، وفي المعايير والمقاييس وترتيب الأولويات. بل تحدث



الفقهاء عن تأثير الزمان والمكان في تحديد الأحكام الشرعية للموضوعات.

ثم إن تطور الحياة، يفرض أسئلة جديدة، وتحديات معاصرة، تستلزم القيام بدور الإضافة إلى التراث، والإسهام في تجديده وتطويره.

كل هذه الأمور تفرض النظر إلى التراث والتعامل معه بعقل مفتوح، ووعي معاصر، وحينما نجد القرآن الكريم ينعى على المجتمعات الأخرى، تجميدها لعقولها، واتباعها لطريقة أسلافها، دون تأمل وتفكير، فإن ذلك يعني التأسيس لمنهجية التعامل الواعي مع تراث الأسلاف، بإعمال العقل، واستخدام المقاييس الصحيحة، لتمحيص التراث، وأخذ الصواب واجتناب الخطأ، وليس الانبهار والاستسلام والوقوع في أسر التراث.



يقول تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ!قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾[1].

إن دراسة نهج السلف قد يكشف للجيل خطأ نهج السابقين وضلاله، وقد يكشف وجود ما هو أصوب وأهدى منه، والمطلوب ليس فقط تجنب الضلال والخطأ، وإنما البحث عن الأفضل والأحسن، حتى في دائرة الصواب. فقد يكون ما سلكه السابقون أنسب لعصرهم وظرفهم، وعلى كل جيل أن يتأكد مما هو أهدى وأصلح لحاضره. هذا ما يمكن استيحاؤه من قوله تعالى:﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾.

(١) سورة الزخرف: الآيتان ٢٣-٢٤.



وإذا كنا مطمئنين كمسلمين للنهج العام لأسلافنا على طريق الإسلام، فإن ذلك لا يعفينا من لزوم النظر والبحث في تفاصيل هذا النهج وتطبيقاته، والاستجابة لتحديات العصر الذي نعيشه.

وفي إطار الدين فإن علمنا بما عرض للفكر والتشريع الإسلامي، من محاولات تحريف وتشويه، من قبل الثقافات الدخيلة، والجهات المغرضة في صفوف الأمة، يفرض علينا أن نجتهد في التمحيص والتدقيق لتجاوز آثار تلك المحاولات. حتى لا ننسب إلى الدين ما ليس منه فنكون مشمولين بوعيد الله تعالى حيث يقول: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى الله الْكَذِبَ﴾[1]. ﴿وَلاَ تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمْ الْكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى الله الْكَذِبَ﴾[2].



ثم إن أسلافنا قد اجتهدوا في فهم الدين حسب طاقتهم، ومستوى معارف عصرهم، وليس هناك ما يلزمنا بحدود فهمهم واجتهادهم، إننا ملزمون بالنص الديني الثابت، أما تفسير السابقين وفهمهم للنص فليس جزءاً من الدين، بل هو معرفة بشرية، يمكن المناقشة فيها، وقبولها أو رفضها، على أساس البحث العلمي.

وهذا هو منطلق القول بوجوب الاجتهاد وجوباً كفائياً على الأمة، بأن تكون هناك حركة اجتهادية في كل عصر وجيل. يقول الشيخ محمد مهدي شمس الدين:

(حاجة الأمة إلى الاجتهاد والمجتهدين، فلا ريب في أن تحصيل الاجتهاد واجب شرعاً وجوباً نفسيًّا تعينيًّا كفائياً على كل مسلم قادر عليه،

---

(١) سورة الصف: آية ٧.

(٢) سورة النحل: آية ١١٦.



ولا يسقط هذا الوجوب عن الأمة، إلا إذا وجد من المجتهدين ما تتحقق به الكفاية، فلا يحد بعدد مخصوص.

وهذا الحكم بالوجوب ينبغي أن يكون من ضروريات الإسلام، لأن طبيعة العقيدة والشريعة، وبمقتضى أصل وضعهما من قبل الشارع المقدس تعالى شأنه، تقتضيان الاستمرار والدوام المتوقفين على استمرار حركة الاجتهاد في الأمة المسلمة، لإظهار أحكام الله تعالى، التي تصوغ حياة البشر وتوجهها في تطورها وتقلباتها، ولحفظ الإسلام من الجمود على خصوص الأحكام التي اقتضتها طبيعة حياة المجتمع، في عصر الرسالة، والإمامة المعصومة الظاهرة، حيث إن هذا الجمود يؤدي إلى النسيان والاضمحلال بتعاقب الأزمان.



وقد دلت على هذا الوجوب من الكتاب العزيز آية النفر، وهي قوله تعالى: ﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[1].

فقد دلت على وجوب التفقه لأجل تبليغ أحكام الشريعة. ودلت على أن هذا الوجوب ثابت على الأمة بنحو الكفاية، يجب أن تقوم به (طائفة من كل فرقة) فهو واجب على الأمة الإسلامية مع ملاحظة انقسامها إلى فرق، وينبسط هذا الوجوب على فرق الأمة، بنحو الكفاية على كل فرقة، ويتحقق الامتثال بقيام طائفة من كل فرقة بالنفر والتفقه.

ومما ذكرنا لا يبعد استفادة عدم كفاية وجود مجتهدين في شعب من الشعوب الإسلامية، لسقوط وجوب التفقه عن سائر الشعوب الإسلامية، بل يجب على كل شعب (فرقة) مسلم، أن يكون منه نافرون متفقهون

(١) سورة التوبة: آية ١٢٢.



(مجتهدون) لأن الأمر في الآية الكريمة وارد بنحو العموم الاستغراقي (كل فرقة) فلا يتحقق الامتثال بنفر طائفة من فرقة واحدة أو أكثر، إذا لم ينفر طوائف من جميع الفرق)[١].

التراث وواقع الأمة

سوء الواقع الذي تعيشه الأمة حقيقة ثابتة لا يمكن النقاش فيها، فالأمة التي كانت رائدة الحضارة والتقدم، وكانت خير الأمم في سالف الزمن، أصبحت الآن في وضع يُرثى له. حيث تعيش تخلفّاً شاملاً، وتصنّف كل دولها ضمن قائمة دول العالم الثالث.

إنها تفتقد الاستقرار السياسي، لغياب الديمقراطية في معظم مجتمعاتها، وتعيش على هامش الحضارة لانعدام مشاركتها في ميادين العلم والتكنولوجيا، وتعاني من التمزق والخلافات الداخلية، لافتقادها السياسات العادلة، وضعف لغة الحوار.

لقد تضاءلت مكانة الأمة عالميًّا، ووصلت سمعتها إلى الحضيض، وبخاصة في السنوات الأخيرة، حيث شُوِّهت صورتها، وأُلصقت تهمة الإرهاب والتطرف بدينها وأبنائها، واتخذت مختلف دول العالم إجراءات التحفظ، تجاه مؤسساتها الدينية والاجتماعية والاقتصادية. وأصبح اسم المسلم وشكله مثيراً لعلامات الاستفهام في أكثر من بلد.

والسؤال الذي يفرض نفسه: هل للتراث دخل في صنع هذا الواقع الذي تعيشه الأمة؟

(١) شمس الدين: محمد مهدي، الاجتهاد والتقليد، ص٩٠، الطبعة الأولى ١٩٩٨م، المؤسسة الدولية للدراسات والنشر، بيروت.




إن قسماً من الناس لا يرون داعٍ لمثل هذا السؤال، ذلك أنهم يعتقدون ببراءة الأمة وظلامتها، فهناك عدوانٌ وتآمر خارجي، أوصل الأمة إلى هذا الواقع المرير، في الوقت الذي تستحق فيه واقعاً أفضل، لعظمتها وأحقية دينها.

وخلاص الأمة وَفْقَ هذه النظرة هو في إشهار سلاح المقاومة، وسيوف الجهاد، ضد الغزاة المعتدين، والكفار المتآمرين.

أما حسب منطق القرآن ورؤيته، فإن انحدار مستوى الأمم، وسقوط المجتمعات، علته الأساس فساد الداخل وضعفه، واتساع رقعة ثغراته، وهو ما يتيح الفرص لنجاح التآمر والعدوان الخارجي، يقول الله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمْ الله بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ الله قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ !ذَلِكَ بِأَنَّ الله لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[(١)]. ويقول تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾[(٢)].

وهنا يكمن التساؤل عن علاقة التراث بواقع الأمة، فالأمة تعلن انحيازها لتراثها، وتظهر تمسُّكها بشعاراته وشعائره، مما يعطي للتراث حضوراً ودوراً في صنع الواقع المعيشي.

إننا لا نستطيع أن نتَّهم وندين كل تراثنا، فهو يشتمل على قيم الدين ومبادئه التي نؤمن بصحتها وصوابها، لكننا نستطيع افتراض الخطأ في طريقة تعاملنا مع التراث، ومنهجيتنا في الاختيار والانتقاء منه.

لقد تورطنا في الأخذ بجوانب سلبية من التراث، وقدَّسنا ممارسات خاطئة لبعض الأسلاف، ووقعنا في فوضى تراثية اختلط فيها علينا الحابل

(١) سورة الأنفال: الآيتان ٥٢-٥٣.

(٢) سورة الشورى: آية ٣٠.




بالنابل، فاخترنا من التراث ما يبرِّر لنا واقعنا، وما يحقق في أنفسنا الرضا عن أوضاعنا المتخلفة.

ذلك أن تراثنا في جانب معارفه البشرية، وتجاربه العملية، نتاج لمدارس ومذاهب وتيارات متعددة، وكان للسلطات الزمنية والقوى النافذة، دور مؤثر في توجهات قسم كبير من هذا التراث، حيث خضع لها كثير من الفقهاء، وتملَّق لها أكثر الأدباء، والتف حولها معظم الكتاب والمؤرخين. مما أفسح المجال لاتساع رقعة ثقافة الاستبداد في تراثنا، لتزاحم مبادئ الحرية والعدل والكرامة، التي جاء بها الدين، وتبتدع الحيل الشرعية والمخارج الفقهية للالتفاف على تلك المبادئ والقيم.



وكما في تراثنا ما يدفع إلى الانطلاق والإبداع، ويدعو إلى اكتشاف آفاق الطبيعة والكون، وإعمار الحياة، فإن فيه ما يشجع على الكسل والعزلة والانطواء، وإهمال أمور الدنيا، بحجة أننا لم نُخلق لها وإنما خلقنا للآخرة، فلا تستحق الحياة أن ننشغل بالتفكير في تطويرها، فلنتركها للكافرين الذين لا آخرة لهم، ولنتوجه للعبادة طمعاً في الجنة.



إننا مطالبون بغربلة التراث، وحسن الانتقاء والاختيار منه، وتجاوز الحرفية في فهم النصوص وتفسيرها، والخروج من أسرْ التقديس المطلق لكل التراث ولجميع السلف، الذي يفقدنا القدرة على التقويم الموضوعي، والتعامل السليم.





المجتمعات والأفكار الجديدة







في يوم المبعث النبوي الشريف، هبط رسول الله ﷺ من غار حراء وهو محمَّل بأعباء رسالةٍ عظيمة في مجتمع جاهلي، يعرف ﷺ مدى عناد ذلك المجتمع، ومدى الجهل المتفشي فيه. ولكن الله تعالى كلَّفه أن يقوم بهذه المهمة، وأعلمه أنها مهمةٌ ثقيلة: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾[1]، وكان رسول الله ﷺ مهيئاً ومستعداً لتحمل أعباء هذه الرسالة العظيمة.

عبر التاريخ كانت هناك أفكار هادية مفيدة تُطرح على المجتمعات البشرية من أحد مصدرين: إما من تطور عقل الإنسان وتجربته، وإما من الوحي وهو الشيء الرئيس. وغالباً ما كانت هذه الأفكار الهادية والجديدة تواجه في البداية إعراضاً وإنكاراً، وقل أن تجد دعوةً من دعوات الرسل والأنبياء أو المصلحين ووجهت في أيامها الأولى بالترحيب والاستقبال، ولكن بعد مدةٍ من الصمود والاستقامة والمواجهة قد تصل تلك الدعوة الإلهية أو تلك الأفكار الإصلاحية إلى مستوى من القبول والنجاح، وقد لا تصل.

وهنا نودّ أن نسلط الضوء على طبيعة موقف المجتمعات من الأفكار

(١) سورة المزمل: آية ٥.



الجديدة، حيث تنطلق المعارضة والتحفّظ غالباً من الأسباب التالية:

أولاً: اللامبالاة

أكثر الناس لا يُبالون تجاه الدعوات والأفكار التي تُطرح في عصورهم ومجتمعاتهم، مهما كانت نوعية الفكرة والدعوة المطروحة سواءً على الصعيد الديني أو السياسي أو الاجتماعي، وقلَّ أن تجد في بداية طرح الأفكار تجاوباً أو تفاعلاً، إذ إن أكثر الناس غير مبالين ولا يجدون أنفسهم معنيين بما يُطرح من حولهم.

بعض الناس يتصورون أن مجرَّد طرح الفكرة لأيِّ مشكلة عالقة في المجتمع من خلال المنابر، ستُعالج القضية وتنتهي المشكلة، ولذلك يطلبون من العالم أو الخطيب أو الكاتب أن يتحدث عن هذه المشكلة أو تلك، ويطرح هذا الموضوع أو ذاك، وقد يتصور من يطرح الموضوع أنه قد قام بواجبه ومسؤوليته بتحدثه عن الأمر، ولكن المسألة أعمق من ذلك بكثير، ولا يعني ذلك عدم جدوائية الطرح، ولكن المسألة بحاجة إلى وقفة تأمل لحالة اللامبالاة عند أكثرية الناس تجاه الأفكار التي تُطرح.



القرآن الكريم يعدُّ حالة اللامبالاة بأنها غفلة، يقول تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [1]. فهؤلاء مع امتلاكهم لعقولهم لكنهم لا يستعملونها ليفقهوا بها ما يُطرح لهم من أفكار ودعوات جديدة، كما أنهم مع إبصارهم للأشياء لكنهم يفتقدون حالة التأمل فيما يدور ويجري حولهم، وأيضاً فهم مع استماعهم لهذه

(١) سورة الأعراف: آية ١٧٩.



الدعوات لكنهم لا يهتمون بوعي ما يُطرح لهم، فهم ﴿كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾، ذلك لأن الأنعام إذا لم تكن تعي فلعدم وجود عقل عندها، ولكن ما عذر الناس الذين يمتلكون عقولاً لا يُفعّلونها ولا يستثمرونها في الاتجاه الصحيح؟ هؤلاء يعيشون حالة غفلة: ﴿أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾.

القسم الآخر من الناس بمجرد أن تُطرح أمامه فكرة جديدة فإنها تُلفت نظره، ويتفاعل معها بالدراسة والتحليل، فقد تكون الفكرة صحيحة وقد تكون باطلة.

وفي السيرة النبوية العطرة نجد أن رسول الله ﷺ عندما بدأ بتبليغ رسالته وُوجه بالإعراض وعدم التجاوب من أكثرية الناس، وكانوا يتعمدون إظهار اللامبالاة، يقول تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[1]، وكان بعضهم يستقبل الزائرين لمكة ليُقنعهم بأن يضعوا قطناً في آذانهم حتى لا يسمعوا كلام رسول الله ﷺ، لتتجدد المعاناة التي تحملها نبي الله نوح عليه السلام من قومه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً، فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَاراً، وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً﴾[2].

في مقابل هذه الحالة كان هناك أفراد تجاوزوا حالة اللامبالاة، ويتحدث التاريخ في سيرة الصحابة رضي الله عنهم عن أناسٍ من الأصحاب الذين بحثوا عن الدعوة، كما كان من شأن سلمان الفارسي رضي الله عنه، وأبي ذر



(١) سورة فصلت: آية ٢٦.

(٢) سورة نوح: الآيتان ٥-٧.



الغفاري ﵁ الذي لم يكن من سكان مكة إذ إن قبيلة غفار تعيش على طريق الشام، وكان شبابها معروفين بقطع الطرق، وبمجرد أن وصل خبر الدعوة لأبي ذر اهتم بالموضوع، وأرسل أخاً له يُقال له أنيس ليأتيه بالخبر، فذهب إلى مكة واستمع لكلام رسول الله ﷺ وعاد إلى أخيه، فسأله ما سمعت يا أخي؟ قال: سمعت كلاماً يأخذ باللب، ويُذهل العقل، فيه أمرٌ بمعروف ونهيٌ عن منكر. قال له: وما هو؟ فلم يتمكن من أن يقرأ عليه كل الذي سمعه، فأصرَّ أبو ذر أن يذهب بنفسه ليطلع على الأمر، كانت الظروف في مكة صعبة، وكان لا يعرف من يسأله عن الأمر، مضى إلى الحرم الشريف واضجع فيه، فمر عليه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﵇ وهو غلام، فقال له: أرى الرجل نائماً هنا، كأن ليس لك عشيرة، ودعاه لضيافته. وسأله: ما الذي جاء بك إلى مكة؟ قال: سمعت أن هناك من يدَّعي أنه رسول. فقال الإمام علي ﵇: على الخبير وقعت، والله إنه لنبي حقًّا. قال: فأوصلني إليه. فجاء به إلى رسول الله ﷺ، قال: أنشدني مما عندك. قال ﷺ: لست بشاعر، ولا أنشد الشعر، ولكنه كلام الله،وبدأ ﷺ يقرأ عليه آيات من القرآن الكريم، ويشرح له الإسلام، فانفتح قلب أبي ذر للإسلام وأسلم في مجلسه، وكان من أوائل من اسلموا.



يقول أبو ذر: سألني رسول الله ﷺ من أي القبائل أنت؟ قلت: من غفار. يقول: فنظر في وجهي متعجباً لما يعرف عن قبيلة غفار. فقال له الرسول ﷺ: اذهب إلى قبيلتك وتكتم عن قريش، قال: ولماذا أتكتم عن الحق؟ فكان أول صوتٍ يُعلن الإسلام في المسجد الحرام وفي شوارع مكة هو صوت أبي ذر الغفاري. وتحمَّل بذلك أذى كبيراً من قريش، إلاَّ



أن العباس بن عبد المطلب حذَّر قريشاً من قبيلة غفار لكي لا تتعرض قوافلهم للسرقة، وبذلك تركوه يمضي لقبيلته. فانطلق لقبيلته (غفار) ونشر دعوة النبي ﷺ وأسلمت قبيلته، كما تحرَّك إلى القبيلة المجاورة وهي قبيلة (أسلم) وأسلمت، وبعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة جاء أبو ذر ومعه حشدٌ كبير من قبيلة (غفار) وقبيلة (أسلم).

القليل من الناس يكونون هكذا.

إن على الإنسان أن يفتِّش عن الحق، ويبحث عن الحقيقة، ولا ينبغي أن تحجزه عنها سحب الاعتراضات والإشاعات، فغالباً ما تواجه دعوات الحق والأفكار الجديدة الصحيحة بالمعارضة والرفض. وكما ينقل الشهيد الشيخ محمد المنتظري وهو من طليعة العلماء المجاهدين في الثورة الإسلامية في إيران، أنه كلما ذهب إلى مجتمع ورأى فيه أجواءً سلبية مناوئة لشخصية من الشخصيات، فإن ذلك يدفعه للانفتاح مباشرة على تلك الشخصية ومعرفة آرائها ومواقفها، وغالباً ما كان يجد أنها مخلصة تستهدف الإصلاح.



كما أن على ذوي الأفكار الجديدة أن يكونوا موضوعيين في توقعاتهم من مجتمعاتهم، فلا يتوهمون سرعة الإقبال والنجاح لآرائهم، فيصابون بالخيبة والإحباط، بل يتحلَّون بالصبر والاستقامة، فذلك هو طريق الإصلاح والتغيير.

ثانياً: الاسترسال

حيث يتمثَّل كثير من الناس مقولة: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى



آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾[1]. فيعيش هؤلاء حالة من القناعة والإشباع بما لديهم من الأفكار والقناعات بشكلٍ لا يشعرون معها بالحاجة إلى الجديد، فيسترسلون مع الحالة الموجودة في المجتمع. ولكن هذه الحالة خطأ، لأنه ليس دائماً ما هو سائد صحيح، وقد يكون صحيحاً في زمن أو ظرفٍ معين، والأزمنة والظروف تتغيَّر فتحتاج الأفكار والقناعات إلى تجديد وتغيير وإصلاح.

من هنا كانت المجتمعات البشرية في حاجة دائمة إلى التجديد والإصلاح، في أفكارها وآرائها وأنماط حياتها، لأن البقاء على وضع وحالة معينة ليس شيئاً سليماً، فطبيعة الحياة فيها تغيُّر وتطور، ولذلك نرى تعدُّد الأنبياء، فمع تغيُّر الزمان والمجتمعات ينزل الله تعالى شرائع جديدة. وكذلك الحال في تعاليم الإسلام نجد أن باب الاجتهاد مفتوح، لتغيُّر وتطور طبيعة الحياة، مما يستدعي حدوث تغير وتطور في بعض الآراء والأفكار.



ولو تأملنا لوجدنا في أوضاعنا الدينية آراءً كانت سائدة، وعندما طُرحت آراء جديدة رُفضت في أول الأمر، ولكن بعد مدة من الزمن تلاشى الرأي السابق، وأصبح الرأي الجديد الذي كان مرفوضاً هو السائد. ومن الأمثلة على ذلك: صلاة الجمعة، إذْ لم تكن متعارفة عند مجتمعاتنا الشيعية، فالرأي السائد كان يرى أن صلاة الجمعة لا تُقام إلا بحضور الإمام المعصوم، أو بوجود حاكم شرعي مبسوط اليد، وكان هناك من الفقهاء من يرى حرمة إقامة صلاة الجمعة زمن الغيبة، أما الآن وخلال الربع القرن الأخير (أي بعد انتصار الثورة الإسلامية المباركة في

(١) سورة الزخرف: آية ٢٢.



إيران) تجلّى وضعٌ جديد فأقيمت صلاة الجمعة في إيران، وشيئاً فشيئاً بدأت تنتشر في مختلف المناطق والبلدان. بالطبع وُوجه هذا التغيير بالاستنكار والاستغراب بادئ الأمر ولكنه أصبح واقعاً الآن. وقبل سنين ما كان يمكن للخطيب الحسيني إلاّ أن يذكر زواج القاسم بن الحسن في اليوم الثامن من المحرم، لكن طرح هذا الموضوع الآن لم يعد مقبولاً.

ثالثاً: عدم الثقة بالنفس

الكثير من الناس لا يسعى للانفتاح على الآراء والأفكار الجديدة، لعدم ثقتهم بأنفسهم لتقويم هذه الأفكار ومناقشتها، بعكس ما عليه الحال من ثقة الجميع بأنفسهم فيما يرتبط بالأمور المادية من أكل وشرب ولباس وغيرها. وفي المجال الفكري ينبغي أن يكون وضع الناس كذلك، فقد منح الله تعالى الإنسان عقلاً، فعليه أن يُعمل عقله بالأسلوب الصحيح، ولا يعني هذا أن يقبل الإنسان كل فكرةٍ جديدة دون دراسة وبحث، وإنما عليه البحث والتمحيص، ليحدد موقفه من أي فكرة، والله تعالى يصف المؤمنين بقوله: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾[١]، ولفظة ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ تُفيد تقصّد الاستماع لا أن يكون ذلك مجرد صدفة، و﴿الْقَوْلَ﴾ تعني الرأي والفكرة، ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ من خلال إعمال عقولهم.

رابعاً: الخوف من الاعتراض

قسمٌ من الناس قد يقتنعون بصحة الأفكار الجديدة، ولكنهم يخشون من إعلان اقتناعهم لمعارضة الناس لها، ومن ثمَّ يضطر هؤلاء لعدم

(١) سورة الزمر: آية ١٨.




التعاطي مع الأفكار الجديدة خوفاً من مواجهة الاعتراض الموجود عند الناس.

وهذا ما واجهه كثيرون في بداية الدعوة الإسلامية، لكن الواعين تجاوزوا هذه الحالة، وفي طليعة أولئك مصعب بن عمير ﵁ وهو من أفضل الشباب الذين كانوا يتمتعون بالدلال والرفاه من قبل أسَرِهِم، وكان معروفاً بأنه أعطر فتى في قريش، ولما سمع عن الإسلام أصبح يبحث عنه ويتقصاه إلى أن أسلم، مع أن أباه وأمه كانا من أشد أعداء الإسلام في ذلك الوقت، لذلك أخفى عنهما إسلامه، لكن هناك من أفشى أمره إلى أبويه، فواجهته أمه بالحقيقة، فاعترف لها بذلك، وانهالت عليه توبيخاً وتقريعاً وهدَّدته بأنها لن ترضى عنه، فقال لها: يا أماه لا تشقي على نفسك، فإني قد آمنت ولن أترك الدين الحق، فلم تقبل أمه منه ذلك، وسجنوه في البيت، وقتّروا عليه في الطعام، ولكنه أصر على موقفه، وبعد ذلك هرب من بيت والديه. وذات يوم كان رسول الله ﷺ جالساً مع أصحابه وقد أقبل مصعب يلبس ثوباً بالياً، ويظهر عليه آثار الجوع، فدمعت عينا رسول الله ﷺ وتأثر الأصحاب، وقال ﷺ: كان مصعب وما في مكة ولد أعزَّ منه على أبويه، ولكنه ترك كل ذلك حبًّا لله ولرسوله.



إن الإنسان الواعي يتحمل الضغوط ويلتزم بالحق، بعيداً عن رضا الناس أو عدمه. وفي دعاء الإمام الحسين ﵇ في يوم عرفة نقرأ هذه الفقرة الرائعة: «ماذا وجد من فقدك، وماذا فقد من وجدك» فالإنسان الذي يصل إلى الحق والحقيقة باقتناع، لا يتنازل عنها من أجل أيِّ شيء آخر، حيث لا شيء يوازي الحق أو يكون بديلاً عنه.



رسول الله ﷺ واجه هذه الحالة في المجتمع ولكنه صبر ممتثلاً قول الله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً﴾[١]، إذ قالوا عنه: ساحر، مجنون، كذّاب، مفتري، ولكن هذه الحالة طبيعية واجهها جميع الأنبياء والرسل والمصلحين، يقول تعالى: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾[٢]. وعلى المصلحين أن يعرفوا أن هذا هو الطريق، فعليهم أن لا يضعفوا أمام الإشاعات والدعايات والاتهامات، فهي حالة طبيعية يواجهها جميع المصلحين. وفي الآية الكريمة معنى مهم جداً، يقول تعالى: ﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً﴾ فالمصلح حينما يطرح آراءه وأفكاره الإصلاحية في المجتمع، وتحصل حالة الاعتراض عليه، فهنا يتوجب عليه أن يهجر المجتمع، ولكن ذلك لا يعني مقاطعة المجتمع أو الهروب منه، لأن ذلك ما يرنو له المناوئون، ولكن ينبغي أن يكون هناك إصرار على التداخل والتعاطي والتواصل مع الناس، والهجْر الذي تسمِّيه الآية الكريمة بالهجْر الجميل يعني عدم التأثر بالدعايات والإشاعات التي تُطرح، فيكون هجران المصلح للمجتمع متمثلاً في عدم الركون إلى الجوانب السلبية وعدم التأثر بها، وألاَّ تنمو لديه مشاعر العداء والبغض والكراهة لأبناء المجتمع، بل يواصل دعوتهم برفق ومحبة وسعة صدر.

وهكذا كان رسول الله ﷺ إذ تحمَّل وصبر فكتب الله تعالى لرسالته النصر والظفر.

(١) سورة المزمل: آية ١٠.

(٢) سورة فصلت: آية ٤٣.






المثقف ومسؤولية الجهر بالرأي*

إقصاء الآخر أزمة تعاني منها أغلب المجتمعات العربية والإسلامية، لكنها تتفاوت في درجة الكثافة والشدة. وترتبط هذه الأزمة بثلاثة عوامل أساس، تنتج هذه الأزمة وتغذِّيها وتفرضها على المجتمع.

العامل الأول: الفهم الديني السائد في هذه المجتمعات الذي يَعُدُّ الرأي الآخر ضلالاً ومنكراً تجب محاربته وإزالته.

والعامل الثاني: سياسات الأنظمة الحاكمة التي ترفض وجود الرأي الآخر المختلف مع توجُّهاتها ومواقفها، وهذا ما مارسته شتى الأنظمة في البلاد العربية والإسلامية، من اشتراكية وقومية وليبرالية وإسلامية، إن

* نشر في ملحق الأربعاء الثقافي التابع لصحيفة المدينة السعودية، عدد ١٤٨٦٠، بتاريخ ٨ ذي القعدة ١٤٢٤هـ.



بعض العلمانيين والناقدين للحالة الدينية يتحدثون عن إقصاء الآخر، وكَسِمَةٍ للتوجُّه الديني فقط، وهذا تجاهل للواقع، فالماركسية في مواقع تسلطها مارست أشد القمع لمخالفيها، والبعثيون في العراق مثلاً فتكوا بالحوزة العلمية في النجف، وخنقوا كل النشاط الإسلامي للسنة والشيعة. وكذلك فعلت القومية الناصرية في مصر.

أما العامل الثالث: فيتمثَّل في التربية والأعراف الاجتماعية التي تربي الفرد على أساس أن إبداء الرأي المخالف للأب أو لشيخ القبيلة أو للرئيس في الإدارة أو لعالم الدين هو إساءة أدب وعدم احترام وتقدير. وقد تترتَّب عليه ردود فعل غاضبة وإجراءات عقاب.



إنه لا يمكن تجاوز هذه الأزمة إلاَّ بمعالجة العوامل التي أنتجتها وفرضتها على واقع مجتمعاتنا.

لا بد من إعادة النظر في هذا الفهم السائد للدين في أوساطنا، فإذا كان المسلم يثق بصحة عقيدته ورأيه الديني، ويرى أنه مطالب شرعاً بمحاربة الضلال الذي يمثله الرأي الآخر، فعليه أن يعرف أن مواجهة الرأي تكون بالرأي، أما المنع والقمع والإلغاء والإقصاء، فهو يؤدي إلى نتيجة عكسية، حيث يمارس الرأي الآخر دوره في الخفاء ويتقوَّى بعامل التحدِّي، وقد تفاجأ بانتشاره وكسبه لمقومات القوة التي راكمها بعيداً عن الأضواء.

لقد دعا القرآن الكريم إلى مواجهة الرأي الآخر بأفضل أساليب الحوار وأخلاقيات التعامل:﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، بل نهى عن استعمال لغة الإساءة للآخر عند الحوار معه ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.



إن القرآن الكريم يدعو الآخرين لإبداء رأيهم وإظهار حججهم وأدلتهم ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾، ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾.

من ناحية أخرى، فإن باب الاجتهاد في فهم الدين مفتوح، ولا يصح لأحد أن يحتكر تفسير الدين وفهمه، ويتهم كل رأي آخر بأنه ضلال وابتداع، لأن من حق الآخرين أن يواجهوه بنفس المنطق، وإذا كان يعتقد أنه يمتلك الأدلة القاطعة على صواب وصحة رأيه فإن الآخرين يعتقدون لأنفسهم ذلك أيضاً.

من ناحية ثالثة، فإن سياسات الحكومات هي المؤثر الأكبر في واقع مجتمعاتنا، فإذا ما أتاحت الحكومة فرصاً متكافئة لجميع الأطراف، وخاصة في مجال الإعلام والعمل الثقافي والاجتماعي، فستكون التعددية والتعايش السلمي بين فئات المجتمع هو الحال القائم. كما نجد ذلك في كثير من البلدان.



أما الانحياز لجهة ما ووضع كل الإمكانات تحت تصرفها وحرمان الآخرين من التعبير عن رأيهم ووجودهم فالنتيجة الحتمية كذلك هي الآحادية والاستبداد الفكري.

بعض الجهات تمارس دوراً قمعياً يكرّس الاستبداد والآحادية ويغذّي التطرّف والتشدّد عن طريق مصادرة ما يخالف التوجه السائد.

ووسائل الإعلام في بلداننا كلها رسمية، فالتلفزيون والإذاعة يعملان بنهج أحادي لا مجال فيهما إلا لرأي اتجاه واحد.

هنا لا بد أن يتحمَّل المثقف مسؤوليته بالإجهار برأيه والاستعداد لدفع الثمن. مشكلتنا أن معظم مثقفينا لا يريد أن يدفع ثمناً للحرية التي



يتشدَّق بها ويدعو إليها، فهو يخشى أن يفوته مكسب من المكاسب.

إن مجتمعاتنا في مرحلة خطيرة حاسمة، وعلى المثقفين أن يقفوا عمليًّا إلى جانب تطلعاتهم ومجتمعاتهم فيكونون أكثر جرأة وشجاعة في مجال التعبير عن الرأي.

أما الجمهور فيجب أن يتجاوز موقف السلبية والتفرج على معاناة المفكرين والمثقفين وذوي الاجتهادات الإسلامية المختلفة.

المسألة ليست شخصية ترتبط بالكاتب أو المؤلف أو المكتبة التي تنشر الكتاب، بل ترتبط بحقِّ الجمهور في المعرفة والإطلاع.

لقد دفعت مجتمعاتنا ثمناً باهظاً لاتجاهات التطرف والإرهاب ولا يمكن مواجهة التطرف إلا بإقرار التعدّدية وحرّية الرأي.





نعم ننقد تاريخنا*

التحسُّس من نقد الذات، حالة مرضية سلبية، تنتج عن غرور زائف، أو شعور بالضعف يجري التستر عليه، وتؤدي هذه الحالة إلى تكريس الأخطاء والثغرات، وتفويت فرص معالجتها وتجاوزها.

وقد حذَّر القرآن الكريم من هذا المرض الخطير ونهى عن تبرئة الذات وتزكيتها. يقول تعالى: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي﴾. ويقول تعالى: ﴿فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾، ويقول تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلْ الله يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ ﴾.

---

* نشر بجريدة الشرق الأوسط، العدد ٩٣٩٧، بتاريخ الجمعة ٤ رجب ١٤٢٥هـ، الموافق ٢٠ أغسطس ٢٠٠٤م.

وكما يصيب هذا المرض الذات الفردية فإنه يصيب الذات الجماعية، بأن تتحسَّس الأمة من نقد ذاتها وأوضاعها الراهنة أو على مستوى التاريخ.

إن الأصالة والحرص على هويّة الأمة وتقدير تاريخها وإنجازاتها الحضارية لا يعني تجاهل الأخطاء والثغرات ونقاط الضعف، فإن القرآن الكريم الذي ينص على الخيريّة المشروطة لهذه الأمة، ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ﴾ هو ذاته يسجل النقد اللاذع لطليعة هذه الأمة أصحاب رسول الله ﷺ، في مواقع الضعف والخطأ كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتْ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِالله الظُّنُونَ﴾.



إن تاريخ الأمة لا يتلخَّص في تاريخ سلطاتها السياسية حتى يكون النقد لتلك السلطات اتهاماً جماعيًا بحق الأمة، ففي تاريخ الأمة أئمة هدى وعلماء وفقهاء ومفكرون وأدباء، قدَّموا للبشرية إنجازات حضارية عظيمة. أما على صعيد الممارسة السياسية فلا يسع المنصف إلا أن يعترف بأن في تاريخ الأمة مساحة واسعة من الاستبداد.

وكما يقول المفكر البحريني الدكتور محمد جابر الأنصاري في كتابه (العرب والسياسة أين الخلل؟): »على الرغم من التألق الروحي والعقلي والعمراني للحضارة العربية الإسلامية فإن تاريخها السياسي ظل أضعف عناصرها على الإطلاق وأشدها عتمة. فهي حضارة جميلة ورائعة لكنها تعاني من» فقر دم سياسي « ومن »أنيميا سياسية« من حيث الواقع العملي



على صعيد التطبيق والنظم والممارسة... وإلى يومنا هذا تبدو الأمة العربية، بملايينها البشرية والمادية، وبامتدادها القاري، وبكل طاقاتها الهائلة المعطلة، جسماً عملاقاً برأس سياسي ضئيل في منتهى الصفر«.

وينقل الدكتور الأنصاري في بحثه شهادات كثيرة قديمة وجديدة لأعلام من علماء الأمة ومفكريها تشير إلى بؤس السياسة في الوجدان العربي، بسبب الواقع السياسي الأليم الذي عاشته الأمة في أكثر عهود تاريخها.

فالدولة الأموية التي استمرت حوالي قرن من الزمن، والدولة العباسية التي دامت أكثر من خمسة قرون، ثم الدولة العثمانية التي دامت أكثر من أربعة قرون، هذه الدول، مثلاً، لو قرأنا سيرها في التعامل الداخلي مع الأمة، لرأينا بوضوح وبما لا يقبل الدفاع والتبرير أن المساحة الأوسع من تاريخ هذه الدول تتسم بالاستبداد والظلم. وهناك بعض الفرج الزمنية المحدودة، التي تختلف بطبيعة الحال عن هذا الوصف، كالسنتين اللتين حكم فيهما عمر بن عبد العزيز، أو بسبب وجود ظروف سياسية تُلجئ الحاكم للتخفيف من ضغطه وقمعه، لكنها حالات مؤقتة على كل حال.




لقد عانى فقهاء الأمة ومفكروها وعلماؤها كثيراً من سياسات الاستبداد، التي صادرت حرياتهم حتى في المجال العلمي والفكري، فضلا عن الجانب السياسي. وما محنة القول بقدم القرآن أو حدوثه، أو ما عرف بـ»محنة خلق القرآن «إلا إنموذج من تلك النماذج.

وقد جمع أحد المؤلفين المتأخرين »عبود الشالجي« بعض ما نقله التاريخ من ألوان التنكيل والقمع وانتهاكات حقوق الإنسان التي مورست تاريخيًّا ضد الإنسان المسلم، ضمن موسوعة أطلق عليها »موسوعة



العذاب« تقع في سبعة مجلدات تقشعر الأبدان من هول ما تحمله بعض صفحاتها من قصص وأحداث.

ففيه فصل عن العذاب بالتغطيس في مستودعات القذر كالبالوعة والكنيف، وفصل عن الوطء بالأقدام على الشخص حتى يموت، وفصل عن التعذيب بالتعليق من يد واحدة، والتعليق من يدين، والتعليق من الساق، والتعليق من الإبط، والتعليق من الثدي، والتعليق منكَّساً، وفصل عن التعذيب بسقي الدواء المسهل، وعن التعذيب بالملح، وعن التعذيب بالخصاء، وعن سمل الأعين، وسلّ اللسان، وجذع الأنف والأذن، وقلع الأضراس، وسلّ الأظافر، وإرسال السباع والحشرات على السجين، وشق لحم البدن بالقصب، وفصل عن قتل الأسير ووضع رأسه في حجر أقرب الناس إليه كزوجته أو ابنته أو والدته، ومجلد كامل عن ألوان القتل للمعارضين كالقتل بالشدخ بالعمود، والقتل رشقاً بالسهام، والقتل قعصاً بالرماح، والقتل بالبارود والرصاص، والقتل بآلات غير معدة للقتل، والقتل بالخنق، والقتل بالشنق، والقتل بالتغريق، ودفن الإنسان حيّاً، والبناء على المعذَّب، وهدم البناء على المعذَّب، والإحراق بالنار والماء المغلي، والسلق بالماء المغلي، والحقن بالماء المغلي... وأتوقف هنا عن ذكر عناوين بعض الفصول الأخرى لفظاعتها.



والكتاب مطبوع أكثر من مرة بمجلداته السبعة التي تزيد صفحاتها على ٢٧٠٠ صفحة ويتحدث عن مختلف الدول السابقة الماضية، وينقل معلوماته عن المصادر التاريخية المتداولة، فهل يمكن مع كل ذلك غضّ الطرف وتبرئة تاريخنا من وجود الاستبداد ؟

وقد يمكن التشكيك في بعض المعلومات والحوادث، لكن ما لا



يمكن التشكيك فيه هو حصول مساوئ كثيرة في التاريخ السياسي للأمة.

إننا بحاجة إلى شجاعة أدبية وجرأة موضوعية لتشخيص مواقع الخطأ، كما نشيد بمواقع القوة ونفخر بها في تاريخنا المجيد. ولا يعني ذلك أن نستغرق في مشاكل التاريخ الماضي، ولا أن ننشغل بالخلاف حول أحداثها، ولا أن نمعن في جَلْد الذات، ولكن تقديس الذات وتبرئتها وتمجيد كل ما سلف وسبق هو حالة سلبية خاطئة.

إننا نفصل بين واقع الاستبداد في تاريخ الأمة وطبيعة تعاليم الإسلام وإنسانية قيمه وتشريعاته، كما ندرك أن أعلام الأمة الصالحين من الفقهاء والمفكرين كانوا مخالفين لمسيرة الظلم بل كانوا ضحايا لها في غالب الأحيان، لذلك فإننا لا ندين كل تاريخ الأمة وإنما ندين ما يستحق الإدانة، قصرت مساحته أو غلبت. والتقديس المطلق والتنـزيه التبريري العاطفي هو نوع مرفوض من خداع الذات.








الفكر الإسلامي بحاجة إلى التجديد في كل زمان *

حوار أجرته جريدة الوطن الكويتية، بتاريخ ٤ جمادى الآخرة ١٤١٩هـ - ٢٤ سبتمبر ١٩٩٨ العدد ٨١٢١/ ٢٥٦٧ السنة ٣٧.





الشيخ حسن الصفار:

❖ لا توجد حرب باردة بين (قم) و (النجف).
❖ ونعم لتأسيس حوزة علمية في الخليج.
❖ الفكر المنحرف يواجه بالفكر لا بشيء آخر.




حوار ومتابعة: إياد الشارخ.

طرأ على ساحة الفكر الشيعي منذ مطلع التسعينيات ما يسمَّى بفكر (التجديد) حيث يطالب المنادون به بإعادة النظر في بعض المفاهيم والقيم، ومراجعة منهجية وأسلوب طرح الرسالة الفكرية الشيعية، لقد طالب المنادون بهذا الفكر بالاعتدال ونْبذ الطائفية، وفتح قنوات الحوار والتعاون مع الآخر. وأعلنوا الحرب على بعض التقاليد التي تمارس باسم التشيّع وهو غير معني بها، كما شهدت الساحة الفكرية الشيعية آراء جديدة تناقش قضايا أصولية في المذهب الشيعي (كالإمامة بالنص) و (عصمة الأئمة) و (المهدي المنتظر) بل طالب بعض أقطاب الفكر الشيعي بمراجعة بعض الروايات المشهورة لدى المذهب التي تُسهم

بتعزيز الفرقة مع السنة أو تكريس النظرة السلبية لأعلامهم وأئمتهم. وتتفاعل الساحة الفكرية الشيعية في حوارات تختلط أحياناً الأوراق العلمية والإقليمية فيها. كما يشتد الحوار حاليًّا بين مدرسة التشدد ومدرسة الانفتاح. وبخاصة أن رئيس الجمهورية الإيرانية (خاتمي) يُعدُّ من أنصار مدرسة الانفتاح والاعتدال.

ويدور الحوار (الشيعي – الشيعي) في مجمله على مبدأ مهم هو مدى قبول مناقشة ومراجعة بعض المسائل الفكرية والأصولية، ومدى إمكان الانفتاح على الرأي الآخر، وحدود ذلك. ويتأثر هذا الحوار بما يطرأ سياسياً على الساحة الإيرانية واللبنانية والعراقية.. بل ومؤخراً ما يحدث في الخليج.. ويبدو للمراقب من بعيد أن هناك حرباً خفية على الزعامة الفكرية إن صح التعبير، فمن (قم) إلى (النجف) مروراً بالأقطاب الفكرية في لبنان.. بل حتى القاعدة الشيعية في الخليج تعمل على أن يكون لها نصيب في ترتيب الأوراق الفكرية الشيعية.. وقد كان لـ(الوطن) هذا اللقاء مع الشيخ حسن الصفار.. في حوار جريء حول المستجدات الفكرية في الإطار الإسلامي عموماً والشيعي بشكل خاص، ولم يخل الحوار من الصراحة والوضوح، وندعو قارئنا العزيز لقراءة تفاصيل الحوار عبر مناطقه الملتهبة، خصوصاً أن الشيخ حسن الصفار من روَّاد مدرسة التجديد ودعاة الانفتاح.

التجديد قضيتي:

الوطن: طرأ على ساحة الفكر الشيعي في السنوات الأخيرة ما يسمى بفكر التجديد، الذي يدعو إلى الانفتاح والاعتدال والتقارب مع الآخر.. أين يقع الشيخ حسن الصفار من هذا الإطار؟!




الصفار: التجديد في الفكر الإسلامي حالة حصلت في الساحة الإسلامية عند كل المذاهب.. فالإسلام كإسلام لا يتغيَّر، لكن فهم المسلمين للإسلام في بعض الحقب والظروف قد يتخلف عن مسايرة التطور الفكري والاجتماعي، وتتراكم عليه مجموعة من الأفكار والتصورات التي تعبِّر عن فهم متخلِّف من قبل بعض المسلمين، ولكنهم ينسبونها إلى الإسلام، لكن يحتاج الفكر الإسلامي، بل والإنساني بشكل عام بين فترة وأخرى إلى نوع من الانتفاضة أو الهزَّة أو إلى إزالة ما تراكم عليه من غبار، ودفعه لمسايرة التطور الذي يحدث في حياة المجتمع وحياة البشر، وهذه الحالة توجد في مختلف المدارس الفكرية والدينية وعلى الصعيد الإسلامي، وكل المذاهب الإسلامية أيضا في الحالة الإيجابية تعيش مثل هذه الحالة (حالة التجديد) .




وفي تراثنا الإسلامي هناك بعض النصوص الواردة التي تشير إلى هذا الجانب، كالحديث المتداول: أنه على رأس كل قرن أو كل مئة سنة يبعث الله مجدَّداً يجدد الدين للناس.

وقد لا يكون المقصود بمئة سنة الفترة الزمنية المحددة، وإنما المقصود هو بين كل حقبة زمنية وأخرى يحتاج الناس إلى مجدِّد يدفع بالحالة إلى مواكبة التطورات، ويزيل التراكمات التي تنشأ والغبار الذي يحصل على فهم الناس الإسلام وللدين.

إنني أعدُّ هذه القضية منطلق نشاطي وتحركي، فقد نشأت في بيئة دينية محافظة، ورأيت أقراني من الشباب معرضين عن الدِّين وعن الحالة الدينية، وهناك من استقطبته الاتجاهات المادية الوافدة، فانضموا إلى الأحزاب اليسارية من شيوعية وبعثية وقومية مختلفة كانت موجودة آنذاك، وهناك من عاشوا حياة اللامبالاة، فلا يهتمون بالجانب الديني ولا

بالجانب الاجتماعي، ويمارسون التديُّن ممارسة تقليدية عادية، في حين تخلّى البعض حتى عن هذه الممارسة وهم كثيرون.

وفي مثل هذه الأجواء بدأت أفكر أنه لا يمكن أن يكون الخلل في الدين ذاته، كما لا يمكن أن تتهم هؤلاء الشباب بأن لديهم خبثاً أو مرضاً أو انحرافاً طبيعيًّا ذاتيًّا، فليست المشكلة في الدين ولا في الناس ولا في الشباب، إنما المشكلة فيما يعرض من الدين، وفي طريقة عرض الدين.

لذلك بدأت أتوجَّه إلى التجديد في طرح الدين، والتجديد في فهم الناس للدين. وبدأت بنفسي أولاً فحاولت أن أتعرف إلى حقيقة الدين، وهل الدين هو نفسه السائد عند آبائنا وأمهاتنا وفي الأجواء التي نراها أمامنا؟ أو أن هناك شيئاً أعمق وأصدق وأقرب إلى حقيقة الدين؟



طبعاً كانت هناك كتابات لعلماء مسلمين مجدِّدين هم الذين بذروا بذور الصحوة الإسلامية المباركة الجديدة، وبالاطلاع عليها والاقتراب منها والتأمل فيها استطعت أن أتوصل إلى حقيقة أنه ينبغي أن يكون لي دور في دفع ودعم حركة التجديد الديني في المجتمع؛ من أجل أن يعرف الناس حقيقة دينهم، ومن أجل إعادة هؤلاء الناس إلى دينهم.. هؤلاء الذين تركوا دينهم وهم في الواقع لم يتركوا الدين، وإنما تركوا ما سُمِّي بالدين، وما عرف بأنه دين في بيئتهم وفي مجتمعهم.

وبدأنا ولله الحمد نمارس دورنا في هذا المجال عبر الكتابة والخطابة، وعبر اللقاء المباشر. وبتوفيق الله أسهمنا في هذه الساحة وفي هذا المجال.. نسأل الله القبول والتوفيق.

الوطن: دعنا نتحدث عن الحرية في الإطار الفكري الشيعي، فهناك تجارب شيعية كتبت ما تعدّه تجديداً للفكر الشيعي من خلال مراجعتها لكتب التراث الشيعي ورؤيتها لبعض الروايات



والموقف من بعض القضايا، وعلى سبيل المثال ما كتبه الموسوي وأحمد الكاتب ويردّده مؤخراً الشيخ فضل الله وردود الأفعال في الإطار الشيعي. هل تعتقدون أن ما يتم تداوله في هذا الإطار يوصف هذه المحاولات بأنها غير لائقة ويشكك بأصحابها ويصبح هناك توجه بعزلها، بمعنى تحديد الحرية الفكرية في الدائرة الشيعية؟

الصفار: في الواقع يجب أن نفرق بين نوعين من هذه الحالات، فهناك حالة فكرية محضة بمعنى أن يكون الإنسان لديه رأي أو فكرة، والفكر لا يواجه إلاَّ بالفكر، وإذا كانت هناك مواجهات خاطئة عبر أساليب أخرى غير المواجهة الفكرية فهي خطأ، ولا يصحّ أن تواجه الفكر بشيء آخر. وهذه الحالات التي تكون فيها أفكار وآراء معينة لو تصفحنا تاريخ الشيعة وتاريخ أئمة الشيعة عليهم السلام لرأينا أن الأئمة كانوا يستقبلون الآراء المخالفة لهم أو التي يعدُّونها منحرفة بالحوار، وكانوا يردونها ردًّا علميًّا، ففي عهد الإمام جعفر الصادق عليه السلام كان هناك مجموعة ممن عرفوا بالزنادقة، وهؤلاء كانوا يدخلون على الإمام الصادق عليه السلام ويطرحون عليه تشكيكاتهم وتوجّهاتهم الإلحادية، فما كان الإمام يواجههم لا بغضب ولا بانزعاج ولا بإساءة معاملة، بل بالعكس كان يفتح لهم قلبه وصدره ويتحدث معهم بكل وضوح، وهم كانوا يشيدون بهذه الأخلاق عند الإمام الصادق، حتى أن أحد تلامذة الإمام واسمه المفضل بن عمرو وقد أملى عليه الإمام الصادق رسالة مهمة وعظيمة عن التوحيد تعرف بـ(توحيد المفضّل)، وسبب إملاء الإمام لهذه الرسالة عليه أنه كان يوماً جالساً في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله في المدينة المنورة فجاءه بعض هؤلاء المشككين في الدين وفي المبدأ، وكانوا يعرفون بالزنادقة والملاحدة مثل عبدالكريم بن أبي العوجاء وأمثاله فصار يتحدث بأحاديثه التشكيكية فغضب





المفضل وقابله بغضب وانزعاج فالتفت إليه وقال له: (إن كنت صاحب كلام فكلمنا، وإن كنت من تلامذة جعفر بن محمد فوالله ما هكذا كان يعاملنا، وإنا كنّا لنرجع إليه فنلقي عليه كل كلامنا وأكثر مما سمعت فما كان يبدي ردة فعلك هذه).

فالأئمة عليهم السلام منهجهم في مواجهة الفكر الذي يرونه منحرفاً وخاطئاً هو منهج الحوار وهو منهج المواجهة الفكرية.

وطرح الآراء وإن كانت مخالفة للسائد وإن كانت مخالفة للمألوف أمر لا يمكن منعه والوقوف أمامه، فنحن لا نستطيع أن نمنع الرأي الآخر المخالف لما نرى ونعتقد، والله سبحانه وتعالى لم يعطنا الرخصة أيضاً في قمع الأفكار والآراء، فالقرآن يقول: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾.. ويقول أيضاً جلّ جلاله: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾[(١)] ويقول: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[(٢)].

الثقافة والعلاقات الإنسانية:

الوطن: ما دمنا نتحدث عن الدين والتجديد فلنعرّج إلى الحوار الإسلامي - الإسلامي فلا شك أن الصحوة الإسلامية خاضت تجربة غنية جداً، وخلال هذه التجربة واجهت عوائق متنوعة ضد ما كانت تطرح من أفكار، وواجهت كذلك أنظمة سياسية تعاملت معها بشكل معيَّن أدّى إلى تأخر تقدمها في مرحلة ما، ثم كان هذا الانفتاح الذي نراه حاليًّا في العالم العربي والعالم أجمع.

(١) سورة الزمر: آية ١٨.

(٢) سورة سبأ: آية ٢٤.




الحوار الإسلامي - الإسلامي ليس فقط بين المذاهب المختلفة إنما حتى في المذهب الواحد نجد أن هناك قصورا في قضية الحوار وإمكاناته، فأين منشأ هذه القضية؟

الصفار: في ظني أن المنشأ عاملان: العامل الأول يرتبط بالوعي الحياتي للكثير من أوساطنا ومجتمعاتنا ففيه ضعف كثير، إن من يعي الحياة ويعي طبيعة الإنسان وطبيعة المجتمع ويعي التطورات التي حصلت، فإن وعيه يدفعه لكي ينهج منهج الانفتاح والحوار مع الآخرين أما حينما يعيش الإنسان ضمن أفكار مقولبة وضمن أشياء جاهزة يؤمن بها فهذا دليل على أن وعيه ضعيف؛ لذلك لا يسعى للانفتاح على الآخرين والاستفادة مما عندهم وإقناعهم بما عنده هو، فالعامل الأول هو عامل الوعي، أما العامل الآخر فهو عامل الأخلاق الاجتماعية حيث يبدو أن تخلّف أو تقدّم أيِّ أمة رهن لجانبين:




جانب الفكر والثقافة، وجانب نمط العلاقة السائدة. وتعاني مجتمعاتنا كثيراً من التخلف في هذا المجال وهو نمط العلاقات السائدة بينها؛ لذلك يصعب علينا التعاون، ويصعب علينا التفاهم، ويصعب علينا أن نخدم مصالحنا المشتركة، وهذا ناتج عن التخلف، فعاملا ضعف الوعي والتخلف الأخلاقي بمعنى أخلاق التعامل والتعاطي، هما وراء ضيق الأفق، ووراء التمنع عن الحوار وعن الانفتاح.

الحوار مع الآخر:

في الواقع الإنسان حينما تكون له فكرة، أو يكون له رأي هل يريد أن يضلِّل نفسه فيقتنع ويأخذ فكرة خاطئة، إنه كالإنسان المريض الذي يصيبه الداء، فلماذا يتناول الدواء أليس من أجل الصحة، لذلك يجب أن يبحث عن الدواء الذي يوصله إلى الصحة



.. أنا أريد الفكرة التي توصلني إلى الحقيقة، لذلك عليّ أن أتأكد أن الفكرة التي عندي هي الطريق السليم إلى الحقيقة، فكيف أتأكد من ذلك؟

من الطرق الأساس للتأكد أن أطَّلع على الأفكار الأخرى حتى أتأكد أن فكرتي هي الصحيحة، أو أن هناك فكرة أخرى هي الصحيحة، أو أصحّ من فكرتي، فالإنسان من أجل ذاته هو يجب أن ينفتح على الأفكار الأخرى.

فعندما يذهب أحدنا ليشتري أيَّ سلعة فإنه يحاول الاطِّلاع على الخيارات المختلفة ولا يقبل بأول خيار يطرح أمامه، لأنه يريد أن يتأكد أن السلعة التي يأخذها هي الأفضل.



هذا كمثال..

أما في الجانب الفكري فيجب أن نكون أحرص على صحة أفكارنا وعلى صوابها، لذلك هناك كلمة جميلة تنقل عن الإمام الحسن بن علي ﷺ يقول: (عجبت لمن يفكر في مأكوله كيف لا يفكر في معقوله فيجنِّب بطنه ما يؤذيه ويدخل إلى عقله ما يرديه)، ففي الجانب الفكري حينما أسمع فكرة يجب أن أتأكد منها. ومن منهجية التأكد أن أطَّلع على الأفكار الأخرى. واطّلاعي على الفكرة الأخرى إما أن يؤكد لي صحة فكرتي أو يكشف عن صحة الفكرة الأخرى، وأينما وجدت الحق يجب أن آخذه حتى ولو كان عند غيري.

المصالح المشتركة:

في الإطار السني - الشيعي من أين تكون البداية؟

الصفار: في الواقع هناك نقاش حول من أين يبدأ الحوار، حيث يرى البعض أن الحوار يجب أن يبدأ من الجانب العقائدي باعتبار أن مواقف



كل طرف أو كل مذهب من المذاهب تعتمد على معتقداته فنبدأ الحوار من الجانب العقائدي، وهناك علماء يؤمنون بهذا الرأي والطرح. وهناك رأي آخر يرى أن الحوار ينبغي أن يكون من خلال أصول الفقه والتشريع على اعتبار أن العقائد والأفكار تكون حالة نفسية ذهنية، بينما يكون التشريع هو الحالة التي يعيشها الناس، ولا يمكن أن نتحاور حول المسائل الفقهية المختلف لأنها تعتمد على مبانٍ معَّينة ولنتناقش حول هذه المباني وهي أصول الفقه. أما الطرح الثالث فهو أن يبدأ الحوار من أرض المصالح المشتركة والواقع المعيشي الذي تعيشه الأمة، وأنا شخصياً أفضل أن يبدأ الحوار من هذا المجال وليس في المجالين السابقين لأمرين مهمين:



أولهما: لخطورة الوضع الذي يحيط بأمتنا العربية والإسلامية في هذا العصر والتحدّيات والمخاطر التي تحف بنا، وهذا يوجب علينا أن نتحاور من أجل أن نحفظ أنفسنا، فكلنا تقلّنا طائرة واحدة وسفينة واحدة إذا أصابنا الغرق أو العطب فسنغرق كلنا بمختلف عقائدنا ومذاهبنا وآرائنا، فلنعمل أولاً على حفظ هذه السفينة التي تحملنا فنبدأ الحوار حول مصالحنا المشتركة وحول القضايا الحيوية التي تحيط بنا لأنها الأكثر خطورة وحساسية.

ثانيا: لأنها تمهِّد لنا نفسيًّا وفكريًّا واجتماعيًّا للحوار في بقية الجوانب. وحينما نجيد التحاور والتفاهم حول المصالح المشتركة فإن هذا يجعل أنفسنا مهيأة من أجل أن نتحاور في أمور أصول الفقه.. وفي أمور العقيدة وفي كل الأمور.

إذا بدأنا من المصالح المشتركة يسهُل علينا بعد الانتقال للحوار العقائدي وفي مباني الفقه، بينما – في رأيي الشخصي– إذا بدأنا من تلك



الحقول فهذا سيشغلنا عن واقعنا الذي لا يتحمَّل التأخير في التوجه إليه، وفي معالجة قضاياه، وقد يسبِّب بعض التشنجات لأن النفوس غير مهيأة.

البداية من الرموز الفكرية:

فيما تعتقد أن المبادرة تبدأ من رموز فكرية أو مؤسسات فكرية، فمن الذي يبدأ بالحوار ويبادر بمناداة الطرف الآخر، هل الأسلم لهذه المبادرات أن تكون من الرموز الشعبية الفكرية أو من المؤسسات والمنشآت الفكرية؟




الصفار: في الواقع، الرموز الفكرية لها تأثير جماهيري واجتماعي، وهي التي يجب أن تبادر بالحوار، وكان هذا هو المؤمل من رجالات الصحوة الإسلامية والحركة الإسلامية، فالصحوة الإسلامية ليست موجودة عند الشيعة دون السنة ولا السنة دون الشيعة، ولذا هناك صحوة إسلامية عند السنة والشيعة، ورجالات الصحوة الإسلامية عند المذاهب الإسلامية بشكل عام معنيُّون بالحوار، فإن رجالات الإسلام الواعين الذين يتبنَّون حالة الصحوة الإسلامية ينبغي أن يبدأ الحوار منهم. كما أعتقد أن المؤسسات الرسمية وبخاصة في منطقة الخليج والجزيرة العربية معنيَّة بالحوار كذلك، فالأنظمة والحكومات عندنا تدرك الأخطار المحيطة بهذه المنطقة، وقد واجهت المشكلات السياسية، الداخلية والخارجية في المرحلة الماضية، وأنا آمل أن تكون هذه الأنظمة مشجِّعة لحالة الحوار بين أتباع المذاهب الموجودين في هذه المنطقة؛ لأن هذا هو الذي يضمن تلاحم أبناء المنطقة مع بعضهم بعضاً وتصدِّيهم للأخطار. ولذلك أتمنى أن تكون من اهتمامات مجلس التعاون الخليجي والحكومات في دول الخليج أن تشجِّع حالة الانفتاح بين المذاهب

السائدة في أوساط مجتمعات الخليج وشعوب الخليج.

فنحن نعرف أن هناك من ينتمي إلى المذهب الزيدي، والمذهب الأباضي، ومن ينتمي إلى المذهب الاثني عشري الشيعي، ومن ينتمي إلى المذاهب الأربعة من أهل السنة، وكلهم يعيشون في هذه المنطقة، وهناك قوى خارج المنطقة تتربَّص بهذه المنطقة، وإذا لم يكن هناك تعاون وانفتاح فإن هذه الخلافات المذهبية قد تكون ثغرة للقوى الخارجية الأخرى تنفذ منها للعبث في أمن منطقتنا وبلادنا؛ فحكومات المنطقة أيضاً ينبغي أن تشجِّع وتدفع باتجاه الحوار والانفتاح المذهبي.




بين قم والنجف:

ننتقل قليلاً عن هذا الإطار ونتحدث حول ما يطرح في الساحة الفكرية الشيعية بما يسمى جدلاً بالحرب الباردة بين (قم) و (النجف) فإن كان هذا الوقع موجوداً فهل -باعتقادكم- له أسباب ومنشأ علمي أم أن هناك أسباباً إقليمية، بمعنى بين المدرسة الإيرانية والمدرسة العراقية؟

الصفار: أنا لا أعتقد أنه في هذه المرحلة هناك حرب باردة بين النجف وقم؛ لأن النجف دورها الآن شبه مجمَّد ومعطَّل في ظل النظام العراقي، والحوزة العلمية في قم هي الحوزة البارزة التي تحتضن الآن الدراسات الدينية الشيعية وتحتضن العلماء والمراجع.. وصحيح أنه في النجف الأشرف هناك مراجع وهناك مجموعة من الطلاب لكنهم لا يأمنون حتى على أنفسهم، وكما عرفنا في الأشهر الماضية أن أكثر من عالم تعرَّض للاغتيال والتصفية، والعلماء الموجودون الآن في النجف والمراجع الكبار غير آمنين على أنفسهم، ولذلك أغلقوا على أنفسهم بيوتهم وما عادوا يستقبلون الزوار ولا يخرجون من بيوتهم. ففي ظل وضعٍ كهذا ليس هناك حديث عن حرب باردة بين النجف وقم.

حوزة علمية في الخليج:

ما دمنا نتحدث عن الحوزات العلمية، ما رأيكم فيما يطرح حول إقامة أو ضرورة وجود حوزة علمية في الخليج؟

الصفار: أنا أعتقد بضرورة هذا الأمر، وأعتقد بضرورة وجود حوزات دينية للشيعة في كل منطقة من مناطقهم؛ وذلك لأن من يرتادون الحوزة العلمية غالباً من مقتبل العمر، وهذا الشاب الذي يكون متحمِّساً دينيًّا إذا لم نوفر له الدراسة الدينية في بلده وفي ظروف أوضاع بلده ويخرج إلى بلدان أخرى فلا نعرف كيف سيكون وضعه، وما هي الأجواء التي سيعيش فيها في تلك البلدان؟ ويبقى لفترة طويلة هناك ثم يعود غير مواكب للظروف المتطورة والمتغيرة في مجتمعه. فمن الأفضل أن تكون هناك حوزات علمية للشيعة في مناطقهم في الخليج والجزيرة العربية، فطلاب العلوم يدرسون دراساتهم الأولية في هذه الحوزات، وإذا احتاجوا للدراسات العليا يكون الطالب قد كبر نوعاً ما، ونضجت شخصيته، وتجاوز فترة الشباب والمراهقة والعنفوان، وفيما بعد ليس هناك أيُّ مشكلة في أن يسافر إلى أيِّ بلد آخر لمواصلة دراسته العليا.




لكن بسبب عدم وجود حوزات علمية دينية للشيعة في الخليج والجزيرة العربية فإن أيَّ شخص يرغب في الدراسة الدينية في مقتبل العمر عليه أن يهاجر من بلده إلى منطقة أخرى وهو في هذا العمر، ويعيش في جوٍّ آخر يختلف عن جو بلده وظروف بلده السياسية والاجتماعية والفكرية، وقد يحصل أنه يعيش حالة من الإرباك أو حالة من عدم النضج في أخذ ما يجب أخذه أو ترك ما ينبغي تركه، فالأفضل أن تكون هذه الحوزات في مناطق الشيعة.



أسباب علمية وسياسية:

ما هي أسباب عدم وجود هذه الحوزات. هل هي أسباب سياسيَّة أم علميَّة؟

الصفار: في بعض الأحيان أسباب علمية لأن وجود حوزة يحتاج إلى وجود عدد من العلماء المتفرغين للتدريس، والعلماء في هذه المناطق قلَّة. والموجود منهم منشغل بمهامه الاجتماعية. وفي بعض الأحيان يكون السبب عدم وضوح أهمية وجود الحوزة أمام الجهات الحاكمة وأمام الأنظمة والحكومات مما يجعلهم لا يشجِّعون مثل هذا الأمر.

هل هناك تفكير جادّ لإيجاد مثل هذه الحوزات في الخليج مستقبلاً؟



الصفار: هناك بدايات طيبة الآن لكنها تحتاج للتشجيع والوقت حتى تنمو بشكل أفضل، فمثلاً في الكويت منذ عام ١٩٧١م كانت هناك تجربة إيجاد حوزة دينية حينما كان هنا الإمام السيد محمد الشيرازي فقد أنشأ مدرسة دينية وأقمت أنا فيها عدة سنوات وكانت محاولة رائدة وجيدة، وتوجد الآن محاولات في مختلف مناطق دول الخليج والجزيرة العربية بهذا المنحى، لكنها تحتاج إلى دعم أكثر من قبل الناس وتشجيع من قبل الحكومات في هذه المنطقة.



المرأة والرجل مواقع متساوية:

ننتقل الآن إلى المرأة وموقعها في الفكر الشيعي، وتعليقاً على قضية المرأة هناك تحفُّز غير مفهوم ودفاع مستميت عن قضية المتعة؟

الصفار: من نافلة القول أن نقول إن المرأة في الإسلام هي في نفس موقع الرجل وليس هناك فارق بين قيمة الرجل وبين دور الرجل أو قيمة ودور المرأة. وفي النصوص الإسلامية من قرآن وأحاديث وروايات، وفي سيرة المسلمين الأوائل ليس هناك فارق بين الرجل والمرأة، وهذه الفروقات التي نراها عمليًّا في حياة المسلمين بين الرجل والمرأة هي ليست من الإسلام، وإنما هي من وحي الأعراف والتقاليد والتخلف العام الذي تعيشه المجتمعات لكنه نسب إلى الإسلام، وهذا الواقع ليس من الإسلام وبعيد عنه.

المرأة في مختلف الجوانب سواء في الجانب السياسي أو في الجانب الاجتماعي أو في الجانب العلمي شأنها كشأن الرجل تماماً إلاَّ ما استثني وهو قليل جداً، ولذلك تجد أن هناك -الآن- طروحات جديدة وجادة لتجاوز هذه الهوة المصطنعة بين موقع الرجل وموقع المرأة في المجتمع الإسلامي.

تعلمون أنه الآن في إيران هناك انتخابات مجلس الخبراء وهو المجلس الذي ينتخب القيادة. والآن هناك كلام جادّ في الساحة الإيرانية بأنه ينبغي أن تترشَّح المرأة ويكون لها الحق في الترشيح لمجلس الخبراء، وفي دستور الجمهورية الإسلامية في إيران ليس هناك ما يمنع أن تترشَّح المرأة في هذا المجلس وهو أعلى هيئة تنتخب القيادة في إيران وتشرف على سير القيادة.

ومن الناحية الفقهية هناك نقاش بين علمائنا حول جواز تقليد المرأة أم لا، ونحن لدينا شيء اسمه المرجع وهو الذي يقلَّد وكل الفقهاء في مقام الاستقلال والنقاش يقولون ليس هناك مانع من الناحية الشرعية لتقليد المرأة لأن العمومات الواردة ﴿فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ




تَعْلَمُونَ﴾[1] ليس فيها تقييد بشرط أن أهل الذكر من الرجال.. الروايات والنصوص الواردة بالرجوع إلى العلماء وتقدير العلماء والعلم أيضاً ليست خاصة بالرجال دون النساء فيقول القرآن الحكيم: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[2] ويميّز القرآن العالم على الجاهل سواء كان رجلاً أو امرأة. وفي تاريخنا كان للمرأة دور قيادي سياسيٌّ وعلميٌّ دينيٌّ أيضاً، فحينما نتحدث عن قضية كربلاء وعاشوراء نذكر أن الإمام الحسين عليه السلام أوصى إلى أخته السيدة زينب، وكانت بعد استشهاد الحسين هي مرجع الشيعة لأن الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام كان مريضاً أيضاً، فكان الشيعة يرجعون إلى السيدة زينب. وعندنا عدة قضايا أيضاً في تاريخ أئمتنا كانوا يأمرون بالرجوع إلى النساء في بعض المسائل مما يدل على أن أخذ المرأة لموقع تكون فيه مرجعاً للتقليد أو مصدراً للفتوى الشرعية لا مانع منه.



المرأة والسياسة:

والدور السياسي واضح منذ العهد الإسلامي الأول بدءاً بموقف السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام التي كانت صاحبة رأي سياسي بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله، والسيدة عائشة أيضاً لها رأي سياسي يخالف رأي الخليفة الإمام علي عليه السلام، وانتهاء بالكثير من الأحداث التي كان للمرأة فيها دور ومشاركة سياسية.

فالحالة الموجودة من تفاوت بين موقع الرجل والمرأة بحيث تكون المرأة محصورة بأعمال البيت فقط هذه حالة ليست نابعة من الإسلام، وإنما هي نابعة من الأعراف والتقاليد في المجتمعات الحديثة. وبالمناسبة

(١) سورة النحل: آية ٤٣.

(٢) سورة الزمر: آية ٩.



لديَّ كتاب مطبوع في هذا المجال تحت عنوان (مسؤولية المرأة) وفيه مناقشة لهذه الجوانب.

أما فيما يرتبط بموضوع المتعة فأنا شخصياً أتقزَّز كثيراً من تكرار طرح هذا الموضوع ومن المبالغة في الدفاع عنه، وأعتقد أن الطرفين شريكان، فالطرف الذي يطرح هذ الإشكال ويشهِّر بهذا الموضوع ويعدُّ أن قول المذهب الشيعي بجواز المتعة موجب للتشهير والعيب بالشيعة لأنهم يقومون بإباحة المتعة فهذا التشهير يندرج في إطار الإثارات الطائفية. والكل يعرف أن قضية المتعة ليست خاصة بالمذهب الشيعي فهي مذكورة في القرآن الحكيم، وهي مذكورة في صحيح البخاري، ومذكورة في صحيح مسلم. وأصل تشريع المتعة يعترف به الجميع، إنما الخلاف أنها نسخت أم لم تنسخ، فما دامت المسألة موجودة في القرآن وفي الأحاديث الصحيحة الواردة عن رسول الله ﷺ فالقائل بها لم يبتدع شيئاً، وكلنا نعترف بأن هذا الأمر كان مشرَّعاً لكن هل نسخ في عهد رسول الله ﷺ كما تشير الروايات الواردة في صحيح البخاري وصحيح مسلم، أو أن النسخ كان في زمن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب كما تشير روايات أخرى؟ فما دامت المسألة فقهية تبحث في كتاب فقه النكاح ولها أصل في الشرع فلماذا تؤخذ كمادة للتشهير وللإعابة.



وفي الجانب الآخر، يحدث في بعض الأحيان عندنا –نحن الشيعة– استدراج لهذه الإثارة، وأنا عندما أجد أن هناك تشهيراً أحاول الدفاع عن نفسي. وأيضاً رأيي وموقفي من مجمل التصرفين الأول والثاني أنهما جعلا الاهتمام بهذا الأمر وكأنه هو قضية القضايا ومشكلة المشكلات.

من الناحية الرسمية الآن في الجمهورية الإسلامية في إيران زواج



المتعة غير مشروع قانونيًّا وغير متناول. وحينما نأتي إلى الكلام من الناحية الاجتماعية، وهل لهذا التشريع أضرار أو منافع فهذا أيضاً يكون بحثاً موضوعيًّا. أما أن نأخذ القضية وكأنها عنوان للمذهب الشيعي، ويأخذها الشيعة وكأنها معركة رئيسة لهم، فهذا شيء لا داعي له ومثير للاشمئزاز والتقزُّز.

بين التراث السني والشيعي:

هناك من مراجع الفقه والتراث الشيعي من يعتقد بأنها بحاجة لمراجعة أملاً بتنقيتها من بعض الروايات المكتوبة التي تزيد من حجم المسافة ما بين المذهب الشيعي والمذاهب الأخرى وهذه مسيرة طويلة، ألا تعتقدون بأن هذا المشروع يستحق من ينبري له بجّد؟




الصفار: في الواقع كل التراث الإسلامي سواء كانت المصادر عند الشيعة أو عند السنة تحتاج إلى تنقية وغربلة، وبعضها يحتاج إلى التوثق من صحته وصدوره، وبعضها يحتاج إلى إعادة النظر في فهمنا للنص حتى على تقدير صحة النص فكيف نفهمه، فكل التراث سواء كان ما عند السنة وما عند الشيعة يحتاج لبحث، لكن اللافت للنظر أننا نهرب من النقد الذاتي وكل واحد يوجه نقده للآخر وليس لذاته، فالشيعي ينتقد ما في تراث أهل السنة، لكنه لا يتحلّى بالجرأة لكي ينقد تراثه هو، والسنيّ أيضاً ينقد ما في تراث الشيعة ولا يتحلّى بالجرأة لينقد ما عنده هو من تراث أيضاً ويعيد النظر فيه، وفي الحقيقة كل تراثنا السنيّ والشيعي بحاجة إلى إعادة نظر.

ومما يساعد على إعادة النظر في التراث الشيعي أن الشيعة ليس عندهم

صحاح، وإذا كان أهل السنة عندهم الصحاح الخمسة أو الصحاح الستة وإذا كان هناك صحيح البخاري وصحيح مسلم، فالشيعة ليس عندهم مصدر تراثي يعدُّونه صحيحاً وإنما يرون أن كل ما في مصادرهم خاضع للبحث والنقاش، فمثلاً الكتب الأربعة -عندنا نحن الشيعة- التي تعدُّ مصادر: الكافي، والتهذيب، والاستبصار، ومن لا يحضره الفقيه، وهذه الكتب الأربعة عندنا نعتمدها كمصادر وكل فقيه من الفقهاء وكل مرجع حينما يأتي يجب أن يجتهد في كل رواية في هذه المصادر ولا يصحّ له أن يعتمد على أن هذه الروايات صححها الكليني أو الطوسي، وبناءً على ذلك يعمل بها، وإنما يجب أن يُعْمِل رأيه واجتهاده فيها. وقد أَلَّف أحد العلماء المعاصرين كتابا سمَّاه (صحيح الكافي) يحوي منتخب الروايات التي يراها صحيحة عدَّها صحيح الكافي فاعترض عليه سائر العلماء؛ لأن هذا صحيح في نظرك أنت وليس صحيحاً في نظر المجتهدين وقد يختلفون معك في الرأي، فليس هناك ما هو مقطوع أو مسلَّم به في كتب التراث إلاَّ بعد الدراسة والبحث والاجتهاد، وهذا ما يسهِّل على الشيعة مهمة المراجعة ومهمة إعادة النظر في بعض الروايات سواء في صحة سندها وثبوت ورودها، أو في فهمهم لها.



ولكن قد يكون عند إخواننا أهل السنة نوع من الصعوبة؛ لأن بعض الصحاح وبخاصة صحيح البخاري وصحيح مسلم أصبح لهما مكانة في النفوس وثقة عند العلماء بحيث يصعب مخالفة شيء مما ورد فيها.

ومن وجهة نظرنا نرى أنه مفروض أن يكون هناك مجال لإعادة النظر في كل ما ورد. والمقطوع به هو كتاب الله سبحانه وتعالى الذي لا يأتيه



الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ما عدا ذلك فالاحتمالات واردة، أما في صحة ورود النص أو في فهمنا للنص.

مخالفات باسم عاشوراء:

(عاشوراء) مناسبة سنوية يتناول فيها الشيعة بشكل مكرور وتقليدي تفاصيل (كربلاء) ويتم فيها استنفار القاعدة الشيعية عاطفياً ومذهبياً بشكل يراه البعض لا يخدم حتى حقيقة الفكر الشيعي، وما يصاحب أجواء المناسبة من لبس الأسود، وملابس للأطفال يكتب عليها (يا لثارات الحسين).. هذا الاستهلاك السنوي.. ماذا يجني منه المسلمون والأمة الإسلامية.. ألا يمكن تغيير استثمار هذه المناسبة بشعارات تنموية وإيجابية تسد حاجة المسلمين. وتنشئ مشروعاً خيرياً، وتناقش مشكلات الأمة وما تواجهه من مخاطر؟!



الصفار: في الواقع الحديث عن عاشوراء عند الشيعة له بعدان: هناك بُعْد المفروض، وهناك بُعْد الواقع في الممارسة الحياتية، ففي مجال الواقع والممارسة، هناك الكثير مما يستوجب النقد ومما يستوجب التغيير والتجديد، سواء كان في الخطاب الذي يتمُّ على المنبر في المحرم أو في الأجواء العامة التي تحيط بالمناسبة، وهناك ما يستوجب النقد والتطوير، وهذا مطروح حتى في داخل المذهب ومن قبل علماء ومفكِّري المذهب. لكن الجانب الآخر حول أصل الموضوع، أصل المناسبة لماذا يحتفى بمناسبة عاشوراء؟

عاشوراء هي مناسبة سنوية لتجديد الولاء لأهل البيت النبوي، وهذا في الأصل لا غبار عليه، وهناك مناسبة أخرى في شهر ربيع الأول عند كثير من المسلمين حول ميلاد الرسول ﷺ وعلى صحبه، والمسلمون في



مختلف المناطق يحيون هذه المناسبة باحتفالات وعطلة رسمية في مختلف الدول الإسلامية، وهناك محطات زمنية يستذكر المسلمون من أحداثها معالم تاريخهم ويجدِّدون العهد بشخصيات دينهم ومبدئهم، هذا في الأصل لا غبار عليه، وإنما الإشكال في طريقة الإحياء وطريقة الممارسة، والنقطة الثانية فيما يخصّ (عاشوراء) وما يصاحبها من الحالة الروحية والعاطفية التي تحيط بها فيمكن استثمارها استثماراً (جيداً) فيما ينفع الناس وينفع هذه البلدان وينفع هذه الشعوب، وأعتقد أن هناك تطبيقات لهذا الأمر، فعندنا الآن بعض الخطباء المتميزين الذين يطرحون خطابات جيدة ومنفتحة ومتنورة ويفيدون المجتمع في طرحهم هذه الخطابات.



عاشوراء في الإطار التربوي:

ونحن نلحظ أن هناك جانباً آخر لإحياء هذه المناسبة، فنحن نرى أن إحياء هذه المناسبة يساعدنا كثيراً في الوقوف أمام هذا السيل الجارف من الأفكار الماديّة والشهوانية في مجتمعاتنا، ونلحظ نحن أثر هذه المناسبة؛ لأن الشباب ذكوراً أو إناثاً في هذه الأيام العشرة يعيشون الأجواء الدينية ويستمعون إلى الخطابات ويسمعون قضايا الدين والتاريخ والأخلاق، وهو مفيد جدًّا. ونرصد نحن في مجتمعاتنا المعطيات الإيجابية في هذا الموسم لكل عام، بحيث لو لم يكن هذا الموسم وهذه التعبئة الدينية الروحية لكان الوضع في مجتمعاتنا من الناحية الأخلاقية والاجتماعية والدينية أسوأ بكثير مما هو عليه.

ولكن هذا لا يعني القبول بكل ما يجري، ولا يصح أن نكتفي بأساليب ووسائل كانت متداولة عند آبائنا وأجدادنا مع تطور الزمن والعصر،



وينبغي أيضاً أن تتطور الوسائل والأساليب، وهذا مطروح الآن، لكن – كما تعلمون– عامة الناس والجمهور حينما يألف طقوساً معينة لا يكون التغيير فيها أمراً سهلاً، خاصة أن هناك قوى تقليدية تواجه أيَّ محاولة للتغيير والتطوير، ونحن مثلاً جربنا طرح مشروع التبرُّع بالدم في أيام المحرم ونجح هذا المشروع والإقبال كان شديداً بحيث لا نستطيع استيعاب المتبرعين بدمائهم في هذه المناسبة، مثل هذه المشاريع تمثل جانباً من جوانب الاستفادة من هذه المناسبة، وأنا أؤيد الرأي الذي ذكرتموه وأدعو له أيضاً وطرحته في بعض محاضراتي.

إننا في كل سنة أيام عاشوراء ينبغي أن نفكر في شعار بعنوان محدَّد تتمحور حوله الخطابات والطروحات، ونعبئ المجتمع باتجاهه، فمرة مثلاً حول الوحدة الوطنية والوحدة الإسلامية، وفي سنة أخرى يكون حول رفع الكفاءات، وفي سنة أخرى يكون حول مواجهة حالة البطالة وقضايا التنمية. نحن نرى هذا الرأي، ونرى أيضاً في كل سنة أن نطرح مشروعاً اجتماعيًّا ينتج عن هذه المناسبة كأن يتبنَّى المجتمع دور الأيتام، ومرة أخرى مراكز للأبحاث وهكذا. وهذه الأفكار نطرحها وهي موجودة في الساحة لكنها الآن في حالة مخاض لمواجهة الموروث والمألوف والمتعارف عليه.

أولويات العمل الإسلامي:

العمل الإسلامي في الخليج أو ما يسمى بالتيار الإسلامي، ماذا ينقصه.. هل التنسيق بين فصائله أو الانفتاح على الجمهور للدخول في مشاريع التنمية.. وهذا التيار الإسلامي المتنوع في مدارسه سواء الفكري أو المذهبي، ماذا ينقصه؟




الصفار: في الواقع ما ينقص هذا التيار في تصوُّري عدة أمور:

الأمر الأول: الأولويات الاجتماعية والمحلية إن صح التعبير، فغالب التيارات الإسلامية والتوجهات الإسلامية الموجودة في الخليج هي بالأصل مدارس فكرية انبثقت في مناطق أخرى، ومن ثمَّ قد نلحظ أنها نقلت اهتمامات وأولويات المناطق الأخرى إلى مناطقها، ولم تأخذ الواقع المحلي كثيراً بعين الاعتبار. نحن نحتاج إلى أن تتأقلم هذه الجهات الإسلامية أو التيارات الإسلامية مع محيطها وتجعل أولوياتها هي أولويات مناطقها ومجتمعاتها هذه النقطة الأولى.

والنقطة الثانية هي موضوع التنسيق والانفتاح مع تنوع الاتجاهات ومع تنوع الحالة المذهبية، بشكل عام يجب أن يكون هناك انفتاح بين هذه التوجهات المختلفة.




والموضوع الثالث ما أشرتم إليه وهو مسألة التنمية ومشاركتها في التنمية وفي تنمية هذه المجتمعات، وفي معالجة التحدِّيات التي تعيشها هذه المجتمعات.

وأضيف إلى ذلك شيئاً آخر رابعاً وهو التجدِّيد الفكري، فمجتمعاتنا في الخليج مجتمعات محافظة وذلك الفكر المحافظ متكرِّس في ساحتنا أكثر من أيِّ منطقة أخرى، والحركة الإسلامية ينبغي أن تقوم بعملية توعية وتجديد وتفهيم الناس حركة دينهم بما يتناسب مع هذا العصر ومع ما يتناسب مع هذه التطورات، والبقاء على الفهم السابق وعلى المصطلحات السابقة وطرح الاهتمامات والأولويات القديمة وما تعاني منه الكثير من ساحاته هذا يكون عائقاً لتطور الحالة الإسلامية والصحوة الإسلامية، فأعتقد هذه الأمور الأربعة هي ما تحتاجه الحالة الإسلامية.